Hell of Hope

شعر

جَحِيمُ الأَمَلِ

الشاعر

الدكتور عدنان بوزان

2025

شعر

مَجَاهِيمُ الأَمَلِ

الدكتور. عدنان بوزان

أيلول ٢٠٢٥

لا تذرفي دمعةً ...
فالدمعُ ملحٌ على جرحِ قلبي
وكلُّ قطرةٍ من عينيكِ
تهدُّ كياني كما تهدُّ الأمواجُ
صخورَ الشاطئ
وتذرني رمالاً
تبعثرها ريحُ الغياب.

الإهداء

إلى كل قلبٍ تذوّقَ مرارةَ الألم، وحملَ في صمتهِ صخبَ المنافي
إلى كل روحٍ أنهكتها الطرقاتُ البعيدةُ وما زالت تفتّشُ عن ومضةِ نور
إلى الذين سقطوا على عتباتِ الحلمِ ولم يفقدوا الإيمانَ بالغد
إلى غرباءَ يكتبون أوطانهم في دفاترِ الغياب
إلى الذين جعلوا من الدمعِ حبراً، ومن الجرحِ أغنيةً، ومن الغربةِ يقيناً

أُهدي هذا الديوان: جحيم الأمل
علَّه يكون نافذةً تُطلّ على وطنٍ لا يموت
وصرخةً تحفظُ للإنسانِ حقَّه في الحياةِ والحرية.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	١١
١- صراخ الكلمات	١٢
٢- قلبي... لا وطن له	١٧
٣- أشكوكِ للسماء	٢١
٤- السماء حين تنحني لعينيكِ	٢٩
٥- حين مضيتِ	٣٢
٦- أهواكِ يا قارئةَ فنجاني	٣٥
٧- أمشاق الليل ووجوهها	٣٧
٨- على بابِ الانتظار	٤٠
٩- نشيدُ العُزلةِ والعِصيان	٤٦
١٠- أنين الغياب	٤٩
١١- حين يسكنني البعد	٥٠
١٢- نشيد التعب والانتظار	٥٤
١٣- السليمانية.. قصيدة لا تنتهي	٥٨
١٤- فستان الخريف	٦٠
١٥- وحيُ القلم	٦٣
١٦- كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ	٦٦
١٧- قد أحتضن الموت قبل أن أنساكِ	٧٣
١٨- ما لم يقله الطريق	٧٦
١٩- لا تعودوا أبداً	٧٩
٢٠- سأصير ما أريد	٨٧
٢١- همسات الريح والحجر	٩١
٢٢- حين تبكي الحروف	٩٤
٢٣- هنا وطن لم يمت	٩٧
٢٤- دخول مفاجئ	١٠٠
٢٥- صديقان على حافةِ العالمِ	١٠٢
٢٦- وطنٌ يتدرّب على الغياب	١٠٦
٢٧- كلمات من بحر الأيام	١٠٩
٢٨- مِمّا نَخْشى؟	١١٢
٢٩- حين يجرحنا الحاضر	١١٥
٣٠- أنا والليل وحكاية طويلة	١١٨
٣١- حين يبكي الحاضر على ماضيه	١٢٠
٣٢- حين يغدو الوطن منفًى	١٢٤

٣٣- نهرُ الكلمات ١٢٧
٣٤- أغار من قلبي ١٢٩
٣٥- نشوة الانتظار ١٣٣
٣٦- حين تُذبحُ قصيدتي ١٣٥
٣٧- تعبُ المسافرِ في وطنٍ بلا وطن ١٣٨
٣٨- في المنفى الأخير أحبّكِ أكثر ١٤١
٣٩- صرخة بين الرماد والدخان ١٤٦
٤٠- مدنٌ تكتب أسماءها بالدم والقصيدة ١٤٨
٤١- أغنية منفيٍّ إلى التي لا أعرف اسمها ١٥٠
٤٢- نهرٌ يتيه في نفسه ١٥٣
٤٣- على أبواب الزمن ١٥٥

مقدمة

في حضرةِ الشعر، حيث يتناسلُ المعنى من رمادِ الكلمات، وحيث يشعلُ الحرفُ فتيلَ الوجود، يولد هذا الديوان: جحيم الأمل.
ليس عنواناً عابراً ولا استعارةً تلقى على عتبة الصدفة، بل هو صرخةٌ تتناوبُ فيها النارُ والندى، وتتعانقُ فيها خيبةُ التاريخ مع شغفِ الإنسان الذي لا يعرفُ الاستسلام.
"جحيم الأمل" انعكاسٌ للروح حين تلقى في أتونِ الأسئلة الكبرى، في أتونِ الفقد والخذلان، ثم تعودُ لتتشبّث بخيطٍ واحدٍ من الضوء، خيطٍ يشبه شراعاً أحمرَ يشقُّ البحرَ عند الغروب. هنا، الأمل ليس واحةً هادئة، بل هو جحيمٌ مضطرم، يؤلم بقدر ما يبعثُ الحياة، ويحرق بقدر ما يفتحُ نوافذ الغد، ويذكرنا أن لا شيء يولد من السكون، بل من لهبٍ يتقاطع مع الريح.
هذا الديوان ليس مجرد قصائد، بل هو مسيرةُ شاعرٍ يعانق الأرضَ والسماء في آنٍ واحد، يحملُ في كفيه رمادَ السجائر وأشلاءَ الحلم، ويحاول أن يعيد صياغةَ العالم بالقصيدة. كلُّ بيتٍ فيه نزف، وكلُّ كلمةٍ فيه حريق، وكلُّ صورةٍ فيه بستانٌ من الرماد ينبتُ منه عشبُ الرجاء.
هنا يلتقي الحبرُ بالدم، وتتعانقُ المنافي بالوطن، وتصبح القصيدة سيفاً لا ينكسر، وقنديلاً لا يخبو، وسراجاً يحرسُ ذاكرةَ التراب. ومن بين هذه النصوص ينهض صوتُ الشاعر ليقول: لن تموتَ البلادُ وفيها من يُغنّي لها، ولن ينطفئ التاريخُ وفيه من يُؤرّخه بالقصائد، ولن يذبح الأملُ وفيه من يحرسه بالدمع والنار.
"جحيم الأمل" شهادةُ شاعرٍ عاش على تخوم الليل، وأصرّ أن يكتب فجراً من حروفه. هو مرافعةٌ وجودية ضد العدم، واعترافٌ ممتد بأن الشعر ليس ترفاً ولا زينةً لغوية، بل هو سلاحُ الضعفاء، وملاذُ المنفيّين، وذاكرةُ المقهورين، وهو أيضاً الوعدُ الأخير بأن الغد يولد مهما كان الحاضر مثخناً بالخراب.
إنه ديوانٌ يحاور الجرحَ والنجمة، الحلمَ والمشنقة، الوطنَ والمنفى، ليعيد صياغةَ الحكاية التي لم تكتب بعد. وفي كل قصيدةٍ من قصائده نفسٌ طويل، محترق، نابض، يذكرنا أن الشعر لا يعاش في الأبراج العاجية، بل في الأزقّة المظلمة، وفي المقاهي التي تفوحُ منها رائحةُ الدخان، وفي أصوات الطيور المهاجرة التي تبحثُ عن غصنٍ لا يكسر.
فادخلوا إلى هذا الديوان كما يدخلُ العاشقُ إلى غابةٍ مجهولة: بخوفٍ وشغف، برعشةٍ وفضول.
واقرؤوا القصائد كما لو كانت آخرَ وصايا شاعرٍ يقاتل بالكلمات.
ستجدون بين صفحاته عناقيدَ حزنٍ تتدلّى من سقف الليل، وأجنحةَ أملٍ تتكسّر ثم تعود لتحلّق، ستجدون موتاً يشعلُ حياةً، وجحيماً ينبتُ ربيعاً.
هذا هو "جحيم الأمل":
قصيدةٌ لا تُطفأ، وصوتٌ لا يختفي، ووطنٌ لا يُمحى من ذاكرة القصيدة.

د. عدنان بوزان

صراخ الكلمات

أنا ابنُ جروحٍ لم تولد..
وحفيدُ لغاتٍ أُحرِقتْ في محارقِ الطغاة
أنا صدى الصرخةِ الأولى للإنسان
حين اكتشف أنَّ الحنجرةَ ليست غناءً فقط
بل سيفاً يجرحُ الفراغ.

أحملُ في صوتي هذيانَ القبور
وأحملُ في يدي رمادَ مدنٍ
مُعلّقةٍ على أعمدةِ التاريخ
مدنٍ نهشتها أنيابُ الغزاة
وظلّتْ تصرخُ في حنجرتي
كدمٍ لا يتخثّر.

أيُّها الحبرُ الغارقُ في دمي..
وأيُّها الورقُ المصلوبُ على حبالِ الريح
من أيِّ هاويةٍ وُلِدتما؟
أنا أكتبُ كي لا ينطفئَ المعنى
وأصرخُ كي لا تتحوّلَ الأرضُ
إلى قفصٍ من صمتٍ أبدي.

كلُّ كلمةٍ تنفجرُ في فمي
كقنبلةٍ من نور
وكلُّ صرخةٍ تُفتّتُ جدرانَ اللا معنى
وكلُّ بيتٍ شعريٍّ
يَحملُ في صدره
جنازةَ وطنٍ
وزفافَ نجمٍ يُطاردُ العتمة.

أنا أصرخُ...
لأنَّ العدلَ غريقٌ في بركةٍ من الذهب
ولأنَّ السماءَ صارتْ أضيقَ من رغيف

أصرخُ...
كي لا يُباعَ جسدُ البلاد
في مزادِ الليل
وكي لا يُمسَخَ التاريخُ
إلى مرآةٍ كاذبةٍ في قصورِ الطغاة.

صراخُ الكلمات...
هو السيفُ الأخيرُ حين تسقطُ الرايات
وهو القلبُ إذا تحوّلَ إلى بركان
وهو هويةُ الشعوبِ حين تُذبحُ أسماؤها
وهو آخرُ خبزٍ
يقي الجائعَ من العدم.

يا أيّها الحبرُ، علّمني
كيف أوقظُ غابةً في قصيدة
كيف أجعلُ الحجرَ يصرخُ
مثل طفلٍ مذبوح
وكيف أستدعي أرواحَ الغرقى
كي تكتبَ معي مراثيها الأخيرة.

أنا أصرخُ...
كي يسمعني الذين لا يسمعون
وكي يرى الذين لا يُبصرون
كي تعودَ الشمسُ إلى كفِّ الفلاح
ويعودَ الزيتونُ إلى ظلّه
ويعودَ الطفلُ إلى أمّه.

أصرخُ...
لأنَّ السكوتَ مقبرة
ولأنَّ الصمتَ شريكُ الجلّاد
أصرخُ...
لأنَّ اللغةَ إذا نامت
تستيقظُ المقصلة.

صراخُ الكلماتِ ليس زخرفاً
بل هو نزيفُ المعنى
هو نبوءةُ الشعراءِ حين ينهارُ الزمن
هو نشيدُ اليتامى في مخيّماتِ الرماد
هو آخرُ عصيانٍ على قدرٍ
كُتِب بأقلامٍ من دمٍ مسروق.

فيا أيّها السائرون في صحراءِ السكوت
لا تبتلعوا أفواهَكم..
دعوا الكلماتِ تصرخُ...
فإنّها وحدَها التي تُقاومُ الفناء
ووحدَها التي تلدُ المعنى من الرماد
ووحدَها التي تُنقذُ الإنسانَ
من أن يُمحى...

***

يا أيُّها القادمونَ من غبارِ الغد
احملوا صراخَ الكلماتِ كما يحملُ الجنديُّ
وصيّةَ أمّه
ولا تُفرّطوا بحرفٍ واحد
فإنَّ الكلمةَ إذا سقطتْ
سقطَ معها وجهُ الإنسان.

لا تتركوا القصيدةَ يتيمة
ولا تدَعوا الحبرَ يتيبّسُ في العروق
فإنَّ الشعرَ آخرُ أسلحتِنا
وآخرُ قلاعِنا ..
وآخرُ ما نحملُهُ من هواءٍ حرٍّ
في هذا الكونِ المثقوب.

اكتبوا...
ولو انكسرتْ أصابعكم
اصرخوا...
ولو تفتّتَت حناجركم

فإنَّ الصمتَ موتٌ بطيء
والكلمةُ إذا صرختْ
أشعلتْ في الحجرِ جمراً
وأقامتْ من الرمادِ شعباً
وفتحتْ في جدارِ الليل
نافذةً على الخلود

***

وصيّة الصرخة

يا وارثي الصرخةَ بعدي
لا تُسقِطوا الكلمةَ من أيديكم
فالكلمةُ سيفٌ إن ارتجفتم
وجسرٌ إن انكسرتم
ونبضٌ إن توقّفَ قلبُ الزمان.

لا تُسلّموا الحبرَ للغبار
ولا الورقَ للمشانق
فالحرفُ إن صمتَ مات
وإن صاحَ بعثَ الأممَ من قبورها
وأوقدَ في عتمةِ الليلِ شموساً لا تنطفئ.

اكتبوا... ولو بدموعكم
وازرعوا الحروفَ في صخرِ الطريق
فإن لم تُزهرْ اليومَ
تُزهرْ غداً
وإن لم تُزهرْ غداً
تُزهرْ بعد ألفِ عام..
فالكلمةُ لا تموت
بل تنامُ في رحمِ الأرض
حتى توقظَها أقدامُ الثائرين.

اصرخوا... ولو خنقتكم الحناجر
غنّوا... ولو كُسرت أوتارُكم

قاوموا... ولو كُتِبَ عليكم الفناء
فإنَّ صراخَ الكلماتِ
ليس رجعَ صدى
بل هو سفرُ الخلود
ووصيّةُ الأحياء للأحياء
وصوتُ الإنسانِ
حين يُحاكمُ صمتَ الأكوان

قلبي... لا وطن له

قلبي ..
ذلك الطائرُ الذي نسيَ كيف يُحلّق
ينامُ منذ قرونٍ في قفصٍ من ضلوعي
ويحلمُ بسماءٍ لا تشبهُ هذا المساء.

قلبي ..
الذي عُلّقَ كتعويذةٍ على أبواب الصبر
كُسِرَ مرّاتٍ بلا عدد
ثم عاد...
يعيد ترتيب جراحه كأنها نشيدُ وطنٍ ضائع.

أنا لا أريد أن أحمله بعد الآن
لا أريدُ هذا النبضَ المتلعثمَ في كلِّ مساء
ولا هذه الرجفةَ حين تبتسمين
ولا هذا الهلعَ الذي يشتعلُ كلما لمستِ يدي.
أريد أن أعلّقه...
على شرفةٍ تُطِلُّ على اللا شيء
وأقول له:
"كفى... لقد تعبتُ منك، أيها الوفيُّ لأوهامي."

أريد أن أخلعه
كما يُخلَعُ الحلمُ عن عينٍ يتيمة
وأدفنه في حفرةٍ تملؤها القصائد
وأكتب فوقه:
"هنا يرقد قلبٌ كان يحبُّ كثيراً، لكنه لم يُحبَّه أحد."

أخاف ..
نعم... أخاف
من الأشياء الصغيرة التي تُميتُنا كلَّ يوم
من كلمة "أحبكِ" إذا جاءت متأخرة
من قبلةٍ تُرمِّمُ بها جبهةُ الغياب

من عناقٍ يشبهُ الاعتذار... لكنه لا يعتذر.

أخاف من النوافذ التي لا تُفتح
من الطرقات التي لا تعود
من الليل إذا تمدّدَ في داخلي كأفعى.
أخاف من وجهكِ إذا زارني في الحلم
ومن صوتكِ إذا جاءني من جهةٍ لا أعرفها.
أخاف من قلبي... أكثر من كلِّ شيء
لأنني لا أعرف كيف أوقفه
إذا اشتعلَ باسمكِ مرةً أخرى.

قلبي ..
الذي شربَ القهوةَ على أرصفةِ الندم
وسألَ المارة:
"هل رأيتم امرأةً تمشي على مهلٍ كأنها تكتبني؟"
ذلك القلب
علَّمته أن يختصرَ الرجاء
أن يُطفئَ المصابيحَ باكراً
أن لا ينتظرَ الرسائل
أن يبتسمَ للنسيان... كأنه صديقٌ قديم.

لكنني اليوم ..
لا أريدُ أن أدرّبه بعد الآن.
سئمتُ تعليمهِ كيفَ يتجمّلُ في العذاب
وكيف يربطُ جرحهُ بربطةِ عنق
وكيف يكتبُ شعراً كي لا يصرخ.

أريد أن أخلعه
وأعلّقه على نخلةٍ في صحراء
كي تأكلهُ الريح
وتُعيدهُ إلى التراب الذي خُلقَ منه.
قلبي ..
لا وطن له...

ولا بيت
ولا ذاكرةٌ صالحةٌ للبقاء.

أيها القلب ..
الذي أحبَّ ولم يُحَب
الذي انتظرَ... ولم يُنتظر
الذي نادى... ولم يُجبه أحد
الذي كتبَ آلاف القصائد... ولم تقرئي واحدة.
أيها القلب ..
لقد انتهى وقتُك.
أنا الآن أريدُ أن أعيشَ بلاكَ
أن أخرجَ منكَ
كما تخرجُ البلادُ من الحرب
بلا نشيد، بلا علم، بلا موتى...
فقط برغبةٍ ألا يتكررَ الخراب.

وأنا ..
الذي كنتُ أقول: "سأصبر"
أقول الآن: "لا أريدُ أن أصبر بعد الآن."
لقد صبرتُ حتى صارت الدموعُ عُملةً رائجة
وصارَ الغيابُ خبزاً يومياً.
صبرتُ... وأنتِ لم تعودي.
صبرتُ... وأنتِ لم تسألي حتى:
"هل ما زلتَ تنتظرني؟"

الحقُّ، يا حبيبتي
أنكِ تأخرتِ كثيراً.
تأخرتِ حتى نسيتُ شكلَ يديكِ
حتى صارَ اسمكِ يشبهُ المدنَ المهجورة
حتى صارَ صوتكِ مثلَ أغنيةٍ قديمةٍ لا تُذاع.
تأخرتِ...
حتى صار قلبي غريباً عني
وصرتُ أقول له كل صباح:

"من أنت؟ ولماذا ما زلتَ هنا؟"

أريدُ أن أخلعكَ
وأتركَ حيثُ لا يصلُ الحنين
ولا تعودُ الطيورُ إلى أعشاشها
ولا يفتحُ الربيعُ نافذةً واحدةً في الروح.

قلبي...
اذهبْ حيثُ تريد
لكن... لا تعد.

أشكوكِ للسماء

(١)

أشكوكِ للسماء ..
وأرفعُ وجعي إلى أبراج الغيم
إلى القناديل التي تُضيء طرقَ العابرين
إلى المجرّات التي تعرفُ حكاياتِ من بكوا بلا صوت.
أقولُ: ها هو رجلٌ يكسرُ كعودٍ قديمٍ في يد الريح
ها هو قلبٌ يذوبُ كملحٍ في بحرٍ لم يعرفْ الضفاف.

لقد أحببتُكِ كما يحبُّ الحجرُ جذوره
كما تحبُّ الصحراءُ وعدَ المطر
لكنكِ تركتِني مصلوباً على جدار الليل
معلقاً بين سماءٍ لا تسمع
وأرضٍ لا تُنصف.

(٢)

أشكوكِ للسماء ..
لأن الأرضَ ضاقت بي
ولأن الطرقَ التي مشيتُها صارت غباراً من ذكراكِ
ولأن وجهي صار مرآةً مشروخة
كلما حاولتُ أن أراكِ فيها
انكسرت ملامحي أكثر.

يا سماءُ، هل تسمعين؟
إنها تركتني رجلاً وحيداً
يحملُ ظلَّه كحِملٍ ثقيل
يمشي في المدنِ كغريبٍ
لا يعرفُ من الحروفِ إلا اسمَها
ولا من الوجوه إلا غيابَها.

(٣)

أشكوكِ للسماء ..
وأكتبُ على جدار الفضاء:
"هنا رجلٌ لم يعرفْ الخيانة
هنا رجلٌ غسلَ قلبهُ بالندى
هنا رجلٌ حفِظَ عهدَ الحلم
لكنّ امرأةً رمتهُ في غياهب الريح."

يا غيمُ، احملْ أنيني
يا برقُ، اكتبْ اسمي على جبين الليل
يا رعدُ، بلّغِ العالمَ أنّ رجلاً سقط
وأنّ سقوطَه لم يكن موتاً
بل انكساراً يجرحُ الحياةَ كلَّها.

(٤)

أشكوكِ للسماء ..
وأقول: كيف تتركين رجلاً عاشقاً
كالنخلةِ في صحراء
واقفاً، عالياً
لكنّ جذورَه عطشى
وأغصانَه تنزف؟

كيف تتركين رجلاً
كان يرفعُ اسمَكِ كرايةٍ
على أسوار قلبِه
ويقاتلُ لأجلِ حلمٍ واحد
ثم تستديرين فجأة
كمن يُلغي تاريخاً بكلمة؟

(٥)

أشكوكِ للسماء ..
لأنني لم أجدْ على الأرض محكمةً للغياب

ولا قانوناً يحاكمُ القلوبَ التي تهجر
ولا كتاباً يشرحُ كيف يعيشُ رجلٌ
وقد انطفأت في داخله شمعةٌ
كانت وحدها تُنيرُ له العالم.

يا سماءُ، أخبريها:
إنني ما زلتُ أكتبُها في الدفاتر
ما زلتُ أنطقُ اسمَها كآية
ما زلتُ أحملُها في عروقي
كسيفٍ من نار
كسكينٍ من حنين.

(٦)

أشكوكِ للسماء ..
وأقول: أيُّ ذنبٍ اقترفتُ؟
هل أحببتُ أكثرَ مما ينبغي؟
هل صدقتُ أكثرَ مما يليقُ بالبشر؟
هل وضعتُ روحي في يدِها
وتركتُها تذبحها بلا وجل؟

أيتها الغائبة
هل تعلمين أنّ رجلاً مثلي
لا يُهزَم بسهولة
لكنّه انهزمَ بكِ؟
هل تعلمين أنني كنتُ جبلاً
ثم صرتُ رماداً بين كفَّيكِ؟

(٧)

أشكوكِ للسماء ..
لأنّ الصمتَ ثقيل
والليلَ طويل
والأرضَ بلاكِ قفر
والوقتَ بلاكِ جدارٌ من شوك.

أقولُ: يا سماءُ
أعيدي إليَّ وجهي القديم
أعيدي إليَّ رجولتي التي بعثرتْها
أعيدي إليَّ قلبي الذي صار كهفاً
تسكنهُ العناكبُ والغرباء.

(٨)

أشكوكِ للسماء ..
وأعرفُ أنّ السماء لن تُنصفني
لكنني أرفعُ إليها جراحي
كما يرفعُ الأسيرُ يديْه للغيب
وأقول: ها أنا ذا
رجلٌ مثقوبٌ بالحب
مطعونٌ بالانتظار
ومحكومٌ بالنسيان الذي لا يأتي.

(٩)

أشكوكِ للسماء ..
حتى إذا قرأتْ نجمةٌ قصّتي
بكت ..
وإذا سمعَ قمرٌ أنيني
انطفأ
وإذا مرّت غيمةٌ من فوقي
هطلت مطراً من حزني.

أشكوكِ للسماء..
وأكتبُ على لسان الغياب:
"هنا عاشَ رجلٌ
لم يعرفْ سوى امرأةٍ واحدة
لكنّها تركتهُ
فسقطت السماءُ على قلبه
ولم ينهض."

(١٠)

أشكوكِ للسماء ..
إلى تلك المسافة البعيدة ...
حيثُ تُقيم الأرواحُ المفقودة
إلى الفضاء الذي لا يعرفُ الكذب
إلى النور الذي يفضحُ كلَّ غياب.
أقولُ: ها هو رجلٌ حمل قلبَهُ كقنديل
فانطفأ القنديلُ في حضرةِ امرأةٍ
لا تعرفُ غيرَ الرحيل.

يا سماء ..
أخبريها أنّني ما زلتُ أبحثُ عنها بين أوراقِ الخريف
بين حجارةِ الطريق
بين الموجِ حين يتكسّر على صدورِ الصيّادين.
أخبريها أنّني كلما حاولتُ أن أبتسم
انكسر وجهي كمرآةٍ صدئة.

(١١)

أشكوكِ للسماء ..
لأنني حين أناديها لا تُجيب
وحين أبكيها لا تعود
وحين أكتبُها يتّسعُ الغيابُ أكثر.

يا سماء ..
لقد علّمتني أن الرجولة ليست قسوة
بل أن تُسلّم قلبَك كاملاً لامرأةٍ واحدة
لكنّها حين أخذته
ألقتْه في صحراءَ قاحلة
وتركتني أفتّش عن بقاياي بين الرمال.

(١٢)

أشكوكِ للسماء ..
وأقول: أيتها الغائبة

هل تُدركين أنّني رجلٌ لم يطلب شيئاً من الحياة
إلا أن يبقى قربَك؟
هل تُدركين أنّني تركتُ خلفي المدنَ والأحلامَ
لأبني لكِ في داخلي وطناً؟
ثمّ هدمتِه أنتِ بيديكِ
كمن يهدمُ بيتاً على رأس صاحبه.

(١٣)

أشكوكِ للسماء..
إلى السحابِ الذي يرحلُ ولا يسأل
إلى المطرِ الذي يهطلُ فوقَ قبور العاشقين
إلى الطيورِ التي تعودُ في المساء
وليس لها عشٌّ تسكنه.

يا سماء ..
لقد أخذتْني منها كما يأخذُ الليلُ النهار
لكنّ النهارَ يعود
أما هي فلم تعُد
وتركتني محكوماً بالأبدية السوداء.

(١٤)

أشكوكِ للسماء ..
لأنها لم تفهم أن الرجولة ليست صمتاً
ولا غضباً..
ولا قسوة..
بل أن تقفَ أمام امرأةٍ وتقول:
"أنا لكِ وحدكِ
وكلُّ ما أملكُ يخصّكِ."

لكنّها لم تسمع
ولم ترَ
ولم تشعر.
ورجلاً مثلي حين يُهمَل

يسقطُ كالشجرةِ التي أبى المطرُ أن يلمسها.

(١٥)

أشكوكِ للسماء..
وأقول: أيتها السماء
لقد تركتِني رجلاً يتحدّث مع صمته
يجلسُ أمام جدار الليل
ويعدُّ النجومَ كما يعدّ السجينُ أيامه.

أيتها السماء..
أنا لم أطلب معجزات
لم أطلب أن يتغيّر الكون
لم أطلب سوى قلبها
لكنها أعطتني ظهراً بارداً
وأبقتني وجهاً يحترق.

(١٦)

أشكوكِ للسماء..
إلى الغيمِ الذي يعرفُ طَعمَ الدموع
إلى البحرِ الذي يعرفُ صوتَ الانكسار
إلى الجبالِ التي تدركُ أنّ الصمتَ أحياناً
أشدُّ قسوةً من الحرب.

أيتها السماء..
لقد كنتُ رجلاً
لكنني صرتُ سؤالاً معلّقاً:
مَن أكونُ بعد أن غادرت؟
أم أنّني لم أكن أبداً؟

(١٧)

أشكوكِ للسماء..
وأقول: إنني رجلٌ يُشبهُ الأطلال
يمشي وفي داخله مدنٌ محروقة

وبيوتٌ بلا أبواب
ونوافذُ بلا ضوء.

لقد كنتُ وطناً لها
لكنّها غادرتني كلّاجئةٍ تبحثُ عن وطنٍ آخر
وتركتني وحيداً
أعلّقُ وجهي على مشانق الذاكرة.

(١٨)

أشكوكِ للسماء..
حتى إذا مرّت أجيالٌ بعدي
ووجدوا بقايا كلماتي
قالوا: هنا عاشَ رجلٌ
لم يُحبّ سوى امرأةٍ واحدة
ولم يعرفْ إلا كيف يخسرها.

(١٩)

أشكوكِ للسماء..
وأعرفُ أنّ السماء ستبقى صامتة
وأنّ الغيمَ لن يردّ
لكنني أرفعُ صوتي إليها
لأنّ الأرضَ صارت أصغرَ من جراحي
ولأنّ البشرَ لا يفهمون أنّ رجلاً
يمكن أن يموتَ من الغياب.

(٢٠)

أشكوكِ للسماء..
أشكوكِ حتى آخر قطرةِ دمٍ في عروقي
أشكوكِ حتى آخر نفسٍ يخرجُ من صدري
أشكوكِ حتى إذا التقينا يوماً
قالت لكِ النجوم:
"هذا الرجلُ شكاكِ لنا
لكننا لم نستطعْ أن نعيدكِ إليه
لأنكِ كنتِ غياباً أكبرَ منّا جميعاً."

السماء حين تنحني لعينيكِ

أخشى أن أفقد كياني أمام عينيك
فالعينان ليستا مرآةً فقط، بل قدرٌ يطلّ عليّ
كما يطلّ الغيم على أرضٍ عطشى
فتتشقق روحي طلباً لمطرٍ مؤجل
ويذبل عطري الداخلي كزهرةٍ تنسى في صحراء.

كلما نظرتُ إليكِ ..
شعرتُ أنّ الكون يعيد بناء نفسه من جديد:
الأرض تتباطأ في دورانها كراقصةٍ أنهكها الشوق
الزمن يتلعثم كطفلٍ يتعلم هجاء الحروف الأولى
والنجوم تنحني خجلاً لتجلس على كتفيكِ
كما تجلس السنابل على صدر الريح.

كنتُ أضحك من براءتكِ
كمن يضحك من وترٍ لا يدري أنّ في جوفه
أنين موسيقى بعيدة
وكنتُ أتأمل أنوثتكِ كما يتأمل بحّارٌ
جزيرةً خبّأها البحر عنه دهوراً
حتى إذا وصل إليها
أدرك أنّ الوصول بداية التيه
وأن الضياع أحياناً أرحم من الاكتمال.

ضحكتكِ...
سهمٌ من نارٍ انغرس في قلبي
فلم يتركني حياً بما يكفي للنسيان
ولا ميتاً بما يكفي للسلام.
ضحكتكِ قصيدةٌ بلا شاعر
وبرقٌ بلا غيمة
وضحكتكِ طفولةٌ تسير على خيط الضوء
ورعشةٌ تجعلني طفلاً

يمد يديه ليمسك يدكِ
في زحمة عالمٍ يوشك أن يبتلعه.

وحين رحلتِ... لم ترحلي
بل تركتِ ألف ظلٍّ منكِ في الممرات
ووشمتِ الهواء بعطركِ
كما توشم المآذن بصوت الأذان
وتركتني أتعثر بخطواتكِ الغائبة
وأسمع صدى ضحكتكِ يتردد في الأزقّة
التي لا تعرفكِ
وأرى ملامحكِ تخرج من المرايا
كطيفٍ يرفض أن يغيب.

كنتُ أقاوم...
أحاول أن أطفئ النار بالماء
لكنني اكتشفت أن النار لا تموت بالمطر
بل تتجدد بدموعي
وأن الحب لا يطفأ
لأن الحب ليس شعلةً في اليد
بل كوكباً يحترق في الصدر.

أجمل ما في الحب أنه يفاجئنا ..
وأجمل ما فيه أنه يجرحنا ..
وأجمل ما فيه أنه يمنحنا الحياة والموت معاً..
في لحظةٍ واحدة
كما لو أننا نضحك والسكين في أعماقنا.

كنتُ أكتبكِ بصمتي
وأقرأكِ بعيني
وأراكِ في الغياب أكثر مما أراكِ في الحضور.
كنتِ لغزاً يخطه القدر
بلغةٍ لم يتعلمها أحد
وكنتُ أنا المترجم الضائع

الذي لا يملك سوى قلبه
ليحاول الفهم.

أيّةُ أنثى أنتِ؟
كيف استطعتِ أن تجمعي بين الطفولة والأنوثة
بين البراءة والفتنة
بين الندى واللهب
بين السكينة والعاصفة؟
كيف استطعتِ أن تهدمي رجلاً
كان يظن أن قلبه صخرٌ
فأصبح بين يديكِ رماداً هشّاً
تذروه ريحُ ابتسامتكِ؟

أيتها القادمة من غيابٍ لا أعرفه
أيتها العابرة بين كلماتي كغيمة
كلما حاولتُ نسيانكِ
أدركتُ أن النسيان وهمٌ
وأن الغياب وجهٌ آخر للحضور
وأنكِ تقيمين في مسام جسدي
كما يقيم البحر في ملح جراحه.

أخشى أن أفقد كياني أمام عينيك ..
لكنني فقدته منذ اللحظة الأولى
يوم دخلتِ حياتي بلا استئذان
وأقمتِ في داخلي كما يقيم البحر في صدفة
وكما يقيم الشِعر في نزيف شاعره.

وأنا الآن ..
لستُ سوى رجلٍ يبحث عن ظلّكِ في المرايا
عن ضحكتكِ في ضجيج الأصوات
عن عطركِ في رئة الهواء
عن يديكِ في برد الليل
وعن نفسه التي سقطتْ
حين التقت عيناي بعينيكِ.

حين مضيتِ

ومَضيتِ...
وكأنَّ الفراقَ كانَ يعجبكِ
كأنَّ البُعدَ وردةٌ تتفتحُ في كفِّكِ
وتركتِ ما كانَ بيننا
رماداً في مهبِّ الريح
وناراً تلتهِبُ في صدري
فتحترق النجومُ ...
كجروحٍ في ليلِ السماءِ وتحترق.

يا أيتها الصديقةُ التي صارت غريبةً
كيف استطعتِ أن تهزمي الدروب؟
كيف تركتِني للغبارِ يكسو ملامحي
لليلِ يلتهمُ قنديلي
وللبحرِ يغسلُ أسماءنا
حتى ذابتْ ...
كأنها لم تكن ..
كخريطةٍ انمحت من وجهِ المدينة؟

أنا الذي نسجتُ لكِ من خيوطِ الفجرِ شعاراً
ومن نجومِ الليلِ طريقاً
ومن دموعي أنهاراً صافيةً تروي عطشكِ؛
فلماذا حين عطشتِ، سقيتِني بالغياب؟

كنتِ بلادي ...
أوطاني الصغيرة التي لا أملكُ سواها
وكنتُ لكِ الغريبَ والبيت
المطرَ والجدبَ
الغيمَ والسماء.
لكنكِ اخترتِ الرحيلَ
وكأنكِ لم تسمعي أنّ مَن يتركُ أرضهُ يصبحُ بلا ظلٍّ.

أيتها العابرةُ في ذاكرتي كريحٍ مسافرةٍ
لقد تركتِ على جدرانِ قلبي ..
خدوشاً لا يمحوها الزمنُ
تركتِ في صوتي ارتجافَ القصيدةِ
وفي عينيَّ حيرةَ الطفلِ حين يتيهُ عن أمه.

أسمعُ خطاكِ الآن، بعيدةً... قريبةً؛
كأنها تسيرُ فوقَ جثثِ أحلامي
وتدفنُ العناوينَ الواهشةَ بالأمسِ.
أرى طيفَكِ كظلٍّ على جدارٍ متهدِّمٍ؛
كلما مددتُ يدي لأمسكهُ تلاشى
كغيمةٍ فقدت ماءها.

يا مَن مضيتِ ...
هل تعلمين أنني ما زلتُ أحملكِ
كما يحملُ السجينُ قضبانَهُ
كما يحملُ النهرُ مصبَّهُ
كما يحملُ اليتيمُ صورةَ أمه في الليلِ؟
أحملكِ في جيوبِ القصيدةِ ..
وفي طيّاتِ الصمتِ ..
وفي مسافاتِ النظرِ التي لا تعود.

لقد كنتِ لي لغةً
فحين غبتِ صار الكلامُ حطاماً
وصار الشعرُ غريباً عن فمي
كأني أنطقُ بلغةٍ لا يعرفها أحد.

ومع ذلك...
ما زلتُ أحبكِ:
أحبكِ كما يحبُّ الطفلُ لعبتَهُ المكسورةَ
كما تحبُّ الأرضُ مطرها حتى لو جاء متأخراً
كما يحبُّ الحالمُ ظلَّهُ ولو تُرِكَ عند أولِ منعطفٍ.

لكنّي أعلمُ...

أنّ مَن يرحلُ لا يعود غالباً
وأنّ النوارسَ التي غادرت موانئَنا
لن تحملَ لنا بريداً آخر.
وأعلمُ أنّكِ اخترتِ الصمتَ
بينما أنا اخترتُ الكتابةَ
— لأنَّ الكتابةَ تقبضُ على الغيابِ
وتعيده إلى صورةٍ يمكنُ حملها.

فدعيني أكتبكِ؛
أكتبُكِ في قصائدَ لا تنامُ
في جرحٍ لا يندملُ
في غيمةٍ تبحثُ عن سماء
في موجةٍ تفتشُ عن صخرٍ
ترتطمُ به لتشعرَ أنها موجودة.

ومَضيتِ...
ولكنكِ تركتِني
أكثرَ امتلاءً بكِ
أكثرَ عطشاً إليكِ
أكثرَ غربةً من الغربةِ نفسها؛
غربةٌ تدرّبُ نفسها على أسماءِ الأشياءِ ...
وتنهضُ لتصنعَ بيتاً من البياضِ والخيالِ.

فامضي...
لكن تذكري:
إنّي كلما كتبتُ سطراً ..
كنتِ أنتِ الحرفَ
وكلما أغلقتُ نافذتي ..
كنتِ أنتِ الريحَ
وكلّما فتحتُ عيني ..
كنتِ أنتِ الغيابَ.

أهواكِ يا قارئةَ فنجاني

أهواكِ...
كأن الفنجانَ لم يخلقْ إلا ليحملَ وجهَكِ
وكأن البنَّ لم يسحقْ إلا ليذوبَ في عينيكِ.
أهواكِ لأنكِ تمنحينَ الليلَ وطناً
والغيمَ نافذةً
والحلمَ سُلَّماً يصعدُ من قلبي إلى شرفةِ يديكِ.

يا قارئةَ فنجاني ...
أي لغةٍ تلكَ التي تنزلُ من أصابعكِ
كالمطرِ على صحراءِ روحي؟
أي نبوءةٍ تلكَ التي تشرقُ في عينيكِ
فتجعلُ المستقبلَ ...
يخلعُ قميصهُ ويجلسُ عند بابي؟

رأيتكِ في قاعِ الفنجانِ مرّةً:
كنتِ قمراً يستحمُّ بماءِ البنِّ
وكنتِ غيمةً تحرسُ مهدَ الصباحِ
وكنتِ وردةً تنبتُ في جدارِ الغيابِ
تقولُ للرمادِ: «قُمْ، صِرْ حياةً أخرى».

أهواكِ...
لأنكِ لا تقرئينَ الغيبَ كعَرَّافةٍ عابِرةٍ
بل تَسكبينهُ في شراييني
كما يسكبُ البحرُ ملحهُ في فمِ الريحِ.
كل نقطةٍ من البنِّ اسمكِ
وكل دائرةٍ طريقٌ إلى قلبِكِ
وكل خطٍّ أسودٍ — نَهْرٌ يعبرُ روحي
ويستريحُ عند كتفيكِ.

يا قارئةَ فنجاني ...
حين تقولينَ: «في حياتكَ امرأةٌ تُشبهُ وطنَك»

أضحكُ:
أيُّ وطنٍ غيركِ يسكنُني؟
أيُّ حدودٍ غيرُ ذِراعيكِ تعلمني ..
أنَّ الأرضَ بلا عناقٍ تذبلُ؟

أهواكِ لأنكِ تحولينَ العتمةَ إلى لغةٍ
والجرحَ إلى قصيدةٍ
والغيابَ إلى موسيقى ..
تنقذهُ العزلةُ لا تقدرُ على تأليفِها.
أهواكِ لأنكِ تعيدينَ للمنفى اسمهُ الحقيقي:
أن يكونَ قلباً بلاكِ.

يا قارئةَ الفنجان ...
لم أعدْ أسألُ عن قدري.
قدري أن أضعَ فنجاني بينَ يديكِ
ككتابٍ بلا غلافٍ
كقلبٍ بلا جدارٍ
كسماءٍ بلا غيمٍ.

أهواكِ...
لأنكِ تعلّمينني أنَّ الحبَّ
ليسَ ما ننتظرهُ من الغيبِ
بل ما نزرعهُ بأيدينا
في ترابِ الكلمةِ.

يا قارئةَ فنجاني ...
لو لم تكوني أنتِ
لظَلَّت فناجيني فارغةً كالمقابرِ
ولظَلَّ قلبي يبحثُ عنكِ
بينَ رمادِ البنِّ وأطيافِ الكلامِ.

أمشاق الليل ووجوهها

الليلة أستطيع أن أكتب أعظم الحنين ..
أستطيع أن أشعل الكلمات على جمر الغياب
أن أرسم على صفحات الظلام وجوهها
وأترك الليل ينسكب فوق قلبي كالمطر الغزير.

أستطيع أن أكتب ...
أنها كانت تمشي في داخلي
كما تمشي الرياح في حقول الزيتون
كأنها لا تترك أثراً على الأرض ..
لكنها تغيّر كل شيء
وكأن الشمس حين تشرق كانت تنظر إليها وحدها
وكأن البحر يغني باسمها في صمت الأمواج.

أستطيع أن أكتب أنها غادرت ...
لكنها تركتني حيّاً
مع ذكراها، مع نبضها الذي لا ينقطع
مع رائحة يديها التي ما زالت تتسلل إلى قلبي
ومع ضحكتها التي تتسلل إلى كل زاوية في الليل
تسكن وجهي ..
تنظر إليّ من بين ستائر الضوء
وتراني أكتب ..
أرتجف ..
أستسلم للفراغ الذي تركته.

أستطيع أن أكتب أن قلبي كان بيتاً لها وحدها
وأن حروف اسمي كانت تترنّم باسمها
وأنني كنت أبحر في عينيها ..
كما تُبحر السفن في المجهول
وأغرق في أمواجها ..
ثم أعود لأكتبها على جدار الزمن.

الليلة أستطيع أن أكتب عن غيابها
وكيف أن السماء لم تعد واسعة بما يكفي لتسعني
وكيف أن النجوم تبكي على وجهي
وكيف أن الليل نفسه يخجل من صمته أمام رحيلها
وكيف أن الريح التي تعصف خارج النافذة
تأتي إليّ بأصواتها، تناديني باسمها
لكنها لا تعيدها ..
ولا تملأ الفراغ الذي تركته.

أستطيع أن أكتب أنها كانت كل الأشياء
حتى الأشياء التي لم أكن أعرفها
حتى ألوان الخريف ..
وهدوء المطر
وهمس الأشجار ..
وصرخات البحر في منتصف الليل.
لقد كانت كل شيء، وأنا كنت كليها
ولا شيء بعد رحيلها سوى كلمات لا تعرف الرحمة.

أستطيع أن أكتب أن الحب قصير
لكن الألم طويل جداً ...
أطول من ضحكاتنا ...
أطول من الليالي
وأطول من العمر نفسه
الذي لم يكن ليكفي لأحضانها
وأطول من الكلمات التي حاولت أن تبلغها.

حتى لو لم أعد أحبها كما كنت أحبها
حتى لو صار قلبي قطعة من الحجر
فإن لياليها ..
وذكراها ..
وعيونها ..
وضحكتها
ستظل في داخلي ..

تسكنني ..
تغتالني برقة
تعلمني أن الحب لا يزول
وأن الرحيل ...
ليس إلا بداية كتابة حزن جديد
أكتبها الآن ..
الليلة ...
وكل ليلة
وأشعلها على صفحاتي
كما تُشعل النار في الحطب اليابس
كي يعرف القلب أن ما فقده لم يمت
وأن ما رحل لم يترك فراغاً
بل ترك قصيدة أعيشها وأموت فيها كل يوم.

على بابِ الانتظار

تعبتُ يا حبيبتي ...
تعبتُ حتى أثقلتني الكلماتُ
فأعدتُ ترتيبَ صمتي ...
على صدر الليل
وعلى ضحكات الصباح

وقفتُ على بابِ الانتظار
أمسكُ بظلٍّ لم يولد بعد
وأوزّعُ على النوافذِ مفرداتِ اشتياقٍ بلا عنوان.

صرتُ مرايا منكسرة
أبحثُ في شقوقها عن وجهٍ
قد يذكرني باسمي.

أحملُ وجهي الممزّقَ بين المرآةِ والغياب
وأسمعُ في صدركِ بيتاً
لم تُقرأ حروفُه بعد.

أنتظرُ نافذتكِ ..
انتظرُ جدائلكِ تقاوم الريح
أنتظرُ يدكِ التي تكتبُ لي عودةً
أنتظرُ أن تلوّحي من آخرِ النسيان
كما لو أنّ السماءَ ..
تلقي قبلةً على كتفِ المدينة.

تعبتُ كالبحرِ
يكتبُ اسمه على الرملِ ...
فيمحوه المدُّ وينساه
كالغيمِ الذي أفرغَ دمعهُ ..
في صحارى لا تشرب
كقنديلٍ عالقٍ بين صنوبرتينِ لا تعرفان الليل.

يا حبيبتي ...
أنا الغريبُ الذي ألقى بظلاله على جدرانكِ
وأنا الذي علّقَ قلبه على حبال الريح
لا أريدُ سوى خيطٍ واحدٍ يصلُ بيني وبينكِ
كي لا أخطئَ البابَ ويعودَ نومي باكراً.

كم مرّةً قلتُ: لن أعودَ إلى هذا الباب؟
وكم مرّةٍ شقّني الرجوعُ كما يشقّ القمرُ
ليلَه ثم يبتعد؟

لكنني أعودُ ...
كالمطرِ يعودُ إلى شرفةٍ نَسِيَت أن تستقبله
وكالطيرِ يعودُ إلى عشٍّ هدمته الرياحُ
فنهضَ من رماده لحنٌ جديد.

تعبتُ من الانتظار ..
من حوارِ الصمتِ مع المقاعدِ الخالية
من الأبوابِ التي تأبى أن تُفتح
ومن رسائلَ ضلّت طريقها بلا عنوان.

أرهقني أن أفتّش عنكِ في المرايا
فتطلُّ وجوهٌ لا أعرفها
وجوهُ مفتاحٍ ضائعٍ لا يعثرُ على بابه.

وأرهقني أن أزرعَ أسماءكِ في دفاتري
فتذبلَ الحروفُ قبل أن تنضج قصيدة
وتتحولَ الكلماتُ إلى ثمارٍ لا يأكلها إلا الصمت.

يا امرأةً صنعتْ من غيابها وطناً
ومن حضورها شتاءً دافئاً
يا امرأةً تقرأُ الأخبار ...
وتبكي لأجل طائرٍ لا يعود
قلبي أثقلُ من آرارات حين يلبس تاج الثلج.
وأضعفَ من ورقةٍ في مهبّ العاصفة.

يطعنه الشوقُ ..
كما يطعنُ الحكايةَ قارئٌ لا يعرف نهايتَها
كأنّ كلَّ فصولي تختصرُ ..
في سطرٍ واحدٍ اسمه: انتظار.

أقفُ أمام باب الانتظار
كمن يقفُ أمام خريطةٍ بلا حدود
أجرّبُ كلَّ طرق الأرضِ
لأعرفَ أيها يقودُ إلى عينيكِ
أمشي على خطوط الرملِ ..
لأعيد قراءةَ أثرِ خطواتنا القديمة
وأراقبُ ظلّي وهو ينسحبُ
كأنّه يحرّف قصيدتي قبل أن أقولها.

قفي معي لحظةً
فأنا لم أعد أعرف من أكونُ دونكِ
أنا الذي تكسّرت ساعاتهُ على عقارب الشوق
أنا الذي لا يعرف النومَ إلا إذا غفوتِ في حلمه
أنا الذي ينسى اسمَهُ حين يذكر اسمُكِ
ويذكرُ اسمكِ حين يختزل الكونُ فيكِ.

على باب الانتظار كتبتُ وصيّتي:
"هنا عاشقٌ
أضاعَ عمرَهُ في البحث ..
عن نافذةٍ تؤدّي إلى عينيها."

لكنني لن أكتفي بالوصية
سأبني على العتبة بيتاً من الحنين
أزرع حوله أغاني الملح والنور
وأعلقُ نداءً صغيراً لا ييأس: عودي.

أستدعيكِ بأسماءٍ منسية:
أمطارُ طفولتي، خبزُ الصباح
ونقطةُ القمر التي علّمتني كيف أكتبُ ..

انتظاراً بلا يأس.

أستدعيكِ ..
بيدٍ تبحثُ عن يدٍ لا تعرف الهرب
أستدعيكِ ..
بكلّ ما يُترجِم الحنينَ إلى لغةٍ أبسط:
فنجانُ قهوةٍ بارد
شارعٌ يتّسع بخطواتكِ
صوتُ قطارٍ يمرُّ ولا يراني
نافذةُ بيتٍ لا تقفل.

تذكرتُ ثوباً من كلماتٍ لم يفصّل بعد
خيّطتُه من مساءٍ يمتدّ إلى صباحٍ لا يعود
وضعتُ فيه قميصَ أمانٍ ووشاحَ اعتذار
وجيباً صغيراً للأحلام
لكنَّ المسافر فيَّ ..
لا يجد محطةً يفرّغ فيها أمتعته.

يا حبيبتي ...
الانتظارُ نافذةٌ على الرحيل أيضاً
وكلّ نافذةٍ تسأل: لماذا نحب؟
نحب لأنّ الحبّ يعلّمنا
أن نكون صادقين مع الصمت
ويعلّمنا أن نضع على المائدة كأسين من الصبر
ونقاسمهما مع الغياب.

أكتبُ لكِ طوال الليل ..
قصيدةً لا تُحصى من الليالي
في كل كلمةٍ ظلٌّ منكِ يركضُ نحوي
أعيدُ ترتيبَ الحروفِ
كأنّي أرتّبُ غرفَ بيتٍ لم يُبنَ بعد
أضع على الطاولة شاي الأمل
وأقفلُ الأبواب على خبرٍ يترصّدنا.

هل تعلمين أنّ الانتظار قد يُصبح تاريخاً؟
تاريخنا نحن الذين وقفنا أمام الأبواب
علّمنا الحجر أن يكون ذاكرة
وعلّمنا الطرق أن تكتب أسماءنا على جدرانها.

أرجوكِ ...
لا تجعلي انتظاري اختباراً بلا نهاية
دعينا نحفرُ في ليل البلاد اسمَ شجرة
نزرع ضحكةً لا تنكسر
ونترك للأطفالِ طريقاً ..
يعودون منه بلا خوف.

أعدكِ إن عدتِ
أن أحمل معكِ صندوق المصابيح
لأضيء به كلّ ركنٍ باهت.

يا امرأةً في فواصل الزمن
يا قصيدةً تقرؤها الأرضُ قبل أن يقرأها الناس
تعالي نغنّي بصوتٍ لا يعرف الحدود
نحول الانتظار إلى عيدٍ صغير
ونصنع من الصبر طائرين:
واحداً يبقى معنا ..
وآخرَ يذهبُ إلى كلّ مَن تاهَ يوماً.

أغلقُ عيني فأراكِ
أفتحُها فتعبرين كأنكِ جسرٌ بين شطّين
تنتشرين كالخبز في الصباح
تدخلين بيوتاً ألقتها الحروب على أبوابها
وتغسلين الوجوه ..
من طين السنين بيدٍ رقيقةٍ كفجرٍ جديد.

تعبتُ ..
نعم ..
لكنني أعودُ لأقول:

الانتظارُ مدرسة
نطوي فيها الخيبة
في زاويةٍ صغيرة
ونخرج بكتابٍ جديد
نعرف أن الحب ليس رفاهية
بل حصارٌ نختاره ونصمد فيه
ومن يرحل ..
قد يترك لنا عتبةً نرتّبها ببطءٍ جميل.

على باب الانتظار رتبتُ أشيائي:
قبعةُ حلم ..
حافظةُ أغانٍ ..
مفتاحُ بيتٍ لم أزره
وردةٌ من كلماتٍ لم تذبل بعد
ورسالةٌ صغيرةٌ تقول:
"إن عدتِ — فبابي لا يزال مفتوحاً."

لو كان الحبُّ سفينةً، فأنا مرساها
لو كان الانتظار بحراً، فأنا قاربه
ولو كنتِ نهايةَ الطريق
لكتبتُ الطريق كلّه لأصل إليكِ.

فعودي يا حبيبتي ...
أو دَعي الانتظارَ يخطُّ لنا نهايةً جميلة
دعِ البابَ يفتحُ ببطءٍ لتسمعَ المدينةُ أنفاسنا
دعِ الصباحَ يطلّ من شقّ الستارة
ودعِ الحبَّ — إن بقي — ينسخُ لنا وجهاً جديداً
على مرايا الغد.

تعبتُ يا حبيبتي ...
وها أنا أكتبُ لكِ قصيدةً أطول من الحلم
كي تبقى على باب الانتظار شمسٌ لا تغيب
وكي لا تضلَّ أيّ عينٍ تبحثُ عن وطنٍ في عينيكِ.

نشيدُ العُزلةِ والعِصيان

كفرتُ بالقصائدِ التي
تطرِّزُ جراحَنا بالخَزَف
وتخدِّرُ فينا نزيفَ البلاد.

كفرتُ بالحروفِ التي
تستحي من الدم
وتنحني للعَلمِ المعلَّق
فوقَ السلاسلِ والقيود.

لعنتُ اللغةَ إن لم تَصرخْ
كحجرٍ في وجهِ الجندي
وإن لم تشعلْ في صدورِ الأطفال
نارَ العودةِ إلى البيوت.

لعنتُ كلَّ شاعرٍ
يصنعُ من قهوتِه مرثيّةً باردة
ومن دمعةِ أمٍّ
أغنيةً رخوةً على المذياع.
لعنتُهُ لأنّه لم يرَ
في وجهِها وطناً
وفي كفِّها علَماً
وفي صمتِها سيفاً.

لعنتُ كلَّ شاعرٍ
استبدلَ لحنَ الرصاصِ
بإيقاعِ العاطفة
واستعاضَ عن الشهداءِ
بأغنياتِ العاشقات
ولم يَرَ في الجثثِ الممدَّدة
سؤالاً عن معنى الشعر.

أيها الشعراء

كفى نوماً على حريرِ الكلمات!
فشعبكم ينامُ
في بردِ الخنادق
ويصحو على صفيرِ الطائرات
ويشيّعُ أبناءَهُ بلا كَفَنٍ
إلا الغبار.

كفرتُ بالقصائدِ التي لا تقاوم
وكفرتُ بالبيتِ الشعريّ
إن لم يكن حجراً
وإن لم يكن يداً تلوّحُ
في جنازةِ المقهورين.

ألا تسمعون؟
صوتُ الأرضِ يناديكم
والقبرُ الذي اتسعَ للأطفالِ
يضيقُ عليكم
والنخلُ الذي انحنى
من ثقلِ المذابحِ
ينتظرُ أغنيةً تعيدُ إليه قامته.

أيها الشعراء
اخرجوا من قلوبِكم
اخرجوا من خمورِكم
اخرجوا من عناقيدِ النساء.
في زمنِ البارود
لا تليقُ قصيدةٌ
إلا التي تشبهُ انفجاراً
ولا يليقُ بيتٌ
إلا الذي يبنى على أنقاضِ ثكنة
ولا يليقُ شاعرٌ
إلا الذي يتركُ وراءهُ
وصيّةً تشبهُ صرخةَ جنديٍّ

قبل السقوط.

إنني ألعنُ كلَّ شاعرٍ
لا يرى في النهرِ جسراً
للشهداءِ إلى الغد
ولا يسمعُ في بكاءِ الطفلةِ
طبولَ الثورة
ولا يكتبُ قصيدتَهُ الأخيرة
بمدادٍ من دم.

أنين الغياب

الليلُ يطولُ كأنّه منفى
يجرُّ خطاه على أرصفة القلب
ويتركُ وراءه صدى أوجاعٍ لا تسمعها العصافير
ولا يلمسها ضوءُ قمرٍ مترددٍ في نافذتي.

أنا وحدي
أحملُ وجهاً مثقوباً بالأسئلة
وعينين مثقلتين بملح الأرق
كأنهما سحابٌ عالقٌ لا يعرف المطر.

أيها الليل
أما تعبتَ من تدوير عجلة الصمت؟
أما مللتَ من محاورة الأرواح الجائعة إلى النور؟
أما اكتفيتَ من شدّ قيدٍ على معصم الحلم
حتى صار الحلمُ أعرجَ لا يصل إلى نهايته؟

أعرف أني لا أملك سوى أن أكتبك
أن أحول سوادك إلى حروفٍ تتنفس
وأستبدل عتمتك بظلالٍ من لغة
كي يظلَّ في الجرح متسعٌ للحياة.

أحلامي تئنُّ كطفلٍ مكسور اللعبة
تبحث عن صدرٍ يدفئها
لكن الليل يغلق أبوابه
ويتركها تموت بين أصابعي كشمعةٍ بلا فتيل.

يا ليل
أيها الغريبُ المقيم في جسدي
لماذا تنسى أنّ للعيون حقّ النوم؟
لماذا تترك الوجع يطرق أبوابها
ويكتب على جدرانها أناشيد الخوف؟

أجلسُ على حافّة الوحدة
أفتش بين ثنايا الأرق عن وطنٍ صغير
عن حقلِ قمحٍ لا تصيبه رياح النسيان
عن امرأةٍ تنام في صدري وتطفئ حريق الكلام.

ولكن...
كلما اقتربتُ من الحلم
يستيقظ الفجرُ مذعوراً
يحمل بقايا الليل في جيوبه
ثم يفر كغريبٍ يخاف أن يسأل عن اسمه.

كم هو طويلٌ هذا الليل
كم هو صبورٌ على تعذيب أرواحنا
كأنّه يتآمر مع الغياب علينا
ويضحك من ضعفنا ونحن نرتجف في حضنه.

يا ليل
أنتَ الطريقُ الذي لا ينتهي
والبابُ الذي لا يفتح
والأرضُ التي لا تنبت
لكننا نحيا بك
ونحن إليك
ونكذب على قلوبنا قائلين:
غداً يولد الصباح.

حين يسكنني البعد

غيابُكِ يا حبيبتي ..
ليس فراغاً في المكان
بل جرحٌ يتسع كلما ضاقت روحي بالحنين
وصمتٌ يدوّي في عظامي
كما يدوّي البحرُ في أصدافه.

أجلسُ أمام نافذتي
كأنّي أحرسُ الهواءَ من خيانتكِ
وأرسم وجهكِ على زجاجٍ
يتكسّر من برد الانتظار.
أقول للريح:
خذيني إلى صحراءٍ بلا حدود
فلعلّي أجدكِ في سرابٍ
يتشكل على هيئة عينيكِ.

غيابكِ ليس غياباً
إنّه عمرٌ آخر يضاف إلى عمري؛
كأنّي أشيخُ كلَّ ليلةٍ
وأعودُ طفلاً كلَّ صباحٍ
أبحث عن صوتكِ بين الطيور.

يا مَن تركتِني
بين ركام الأسئلة والظلال ..
كيف يشفى قلبي منكِ
وأنتِ داؤه ودواؤه؟
كيف أكتب قصيدةً
حبرها دموعي
وسطورها ارتجافُ أصابعي؟

أنا لا أبكيكِ
بل أبكي المدنَ ...

التي لا تفتح أبوابها إلا حين تمرّين
وأبكي الطرقات ...
التي تذبل مصابيحها إن لم تلمح خطاكِ
وأبكي جسدي ..
الذي صار وطناً بلا حدودٍ ولا علم
وطناً يتيماً على خريطةٍ ممزّقة.

أُحدّث الغياب كما يحدّث شاعرٌ وطنه:
يا أيها الغيابُ
هل تشعر بثِقل
أن تكون وطنَ العاشقين المنفيّين؟
هل تدري أنّك مرآتي التي أرى فيها هشاشتي؟
وأنّك سجني الذي بنيتُ جدرانه بيدي؟

غيابكِ علمني أن الليل أطول من أعمارنا
وأنّ النهار لا يكتمل إلا بظلّكِ
وأنّ الوقت ليس ساعاتٍ تعلق على الجدار
بل دقاتُ قلبٍ لا يسمعها سواكِ.

أُفتّش عنكِ في الكتب القديمة
في أصوات العصافير المهاجرة
في رائحة القهوة حين تفور على مهل
وفي ارتباك المرايا حين تسألني:
"أين وجهكِ الآخر؟"

أبحث عنكِ في ضحكات الأطفال
في ارتعاشة يدٍ تصافح الغريب
في صلاة الأرامل
وفي ارتجاف النايات على الشفاه اليابسة.

يا غياباً
يمتدّ في جسدي كأنّه وطن
كيف استطعتِ أن تحوليني إلى منفىً داخل نفسي؟
كيف جعلتِني أعيشُ نصف حياة

ونصف موت
ونصف حبٍّ لا يكتمل؟

أصرخُ فلا يسمعني أحد
أكتبُ فلا يقرأني أحد
أحبّ فلا يصدّقني أحد
كأنّي أُعيد اختراع الوحدة في كلّ نفسٍ أتنفّسه.

غيابُكِ، يا بعيدة
نهرٌ لا يصل إلى البحر
وجناحٌ مكسورٌ لطيورٍ تبحث عن سماء
ووردةٌ تنبت في مقبرة
وقصيدةٌ بلا قافية
وأنا... حين أناديكِ ولا تجيبين.

علّمتِني يا غيابُكِ
أنني حين أفقدكِ
لا أفقدكِ وحدكِ
بل أفقد ...
كلَّ ما يجعل الأرضَ تحت قدميّ أكثر احتمالاً
وأفقدُ نفسي
كما يفقد البحرُ ملوحته إذا جفّت الشمس.

ومع ذلك
أُحبّكِ في غيابكِ كما أحببتكِ في حضوركِ
بل أكثر
لأن الغياب يعرّي الحقيقة:
أنتِ قدري
وأنا حروفكِ التي لن يكتبها سواكِ.

فلتبقي غياباً يوجعني
غياباً يسكنني
غياباً يجعلني أصرخُ في وجه الحياة:
ما زلتُ أحبّكِ...
رغم أنين الغياب.

نشيد التعب والانتظار

تعبتُ...
تعبتُ كثيراً من الأملِ المكسور
من زجاج النهارِ حين يسقطُ في قلبي
كأمطارٍ بلا مأوى
ومن ليلٍ يسدِل ستارهُ على جرحٍ لا ينام.

تعبتُ من صراخِ قلبي
كطفلٍ يتيمٍ يصرخُ في الأزقة
ولا يسمعُ سوى صدى خطاه.
تعبتُ من زمنٍ لا يخجلُ من عُريه
ومن مرايا الخريف
حين تسقطُ أوراقها كضحايا مجهولين
في مقابر الريح.

كم من عُشٍّ للطيورِ المهاجرة
لوَّنتْهُ دموعي على شجرِ قلبي
من أجلكِ
وكم من ريحانٍ غرس في الأرضِ وحيداً
ولم يجد مَن يدافع عنهُ
غير عاطفتي الكسيرة
غير يدي المرتجفة من الانتظار.

قلتُ: لعلّ الغدَ يأتي
وفي قلبي تزهرُ حديقةٌ باسمكِ.
لعلّ الطريق الطويل
يعيدكِ إليّ كما تعيدُ الأمواجُ
أصدافها إلى الشاطئ.
لكنني تعبت...
وتعبت...
وعيناي ما زالتا تتبعان الطريق

كأبصارٍ منفية
لا تعرفُ إلى أين تسير
ولا متى ينتهي هذا العناء.

أأنتظرُ مَن؟
لا أعرف...
فلمن أذبتُ عمري في نارِ الغياب؟
ولمن خبّأتُ أنفاسي في زوايا الليل؟
ولمن زرعتُ قمحاً على تربة الجرح
ولم أحصد سوى رماد؟
لا أعرف...

تعبتُ...
تعبتُ من بوحٍ لا يسمعه أحد
ومن نجومٍ تَذبلُ على كفّي
كأنها قناديلُ منطفئة
في جنازة السماء.
تعبتُ من السؤالِ الذي ينهشُني:
أأنتِ حقيقة؟
أم وهمٌ يلوّنُ صمتي؟
أأنتِ طيفٌ عابر؟
أم وطنٌ ضاعَ في عناوين الخرائط؟

كل الطرقِ تؤدي إلى غيابكِ
وكل الأبوابِ موصدةٌ
إلا بابَ حزني.
كل الأغاني التي سمعتها
تصيرُ مراثي حين أذكر اسمكِ
وكل القصائد التي كتبتها
تسقطُ ميتةً
على الورقِ الأصفرِ من تعبِ يدي.

أيتها البعيدة..
يا مَن تركتِني معلقاً

بين موتٍ لا يأتي
وحياةٍ لا تعاش
هل تعلمين أنني أطفأتُ قناديلَ عمري
على أملِ أن تضيئي نافذتي؟
هل تعلمين أنني سجنتُ نفسي
في سجنٍ من صبرٍ
لا يفكهُ إلا حضوركِ؟

تعبت...
تعبتُ من أن أكونَ حارسَ أطلالٍ
لا أحدَ يعود إليها
ومن أن أكونَ شاعراً
يبكي قصيدتَهُ
قبل أن يكتبها.
تعبتُ من أن أكونَ أنا...
أنا الذي ضاعَ بين المعنى والعدم
بينكِ وبينَ غيابكِ
بينَ قُبلةٍ لم تكتمل
وصلاةٍ لم تُستجب.

يا غريبةً في دمي
يا صدى لا ينطفئ
علّمتِني أن للانتظارِ جحيماً
أشدَّ من الموت
وأنَّ للحبِّ ذاكرةً
لا تشيخُ
ولا تخون.

لكنني، رغم كل التعب
أنتظر...
أنتظرُكِ كما تنتظرُ الأرضُ
مطراً لا يأتي
كما ينتظرُ الجرحُ

يداً تُضمِّده
كما ينتظرُ الشعرُ
قلباً يقرأهُ.

أيتها الحاضرةُ في غيابكِ
لو تعلمين كم من العمرِ ذابَ فيكِ
وكم من الحنينِ ماتَ على أعتابكِ
وكم من الليلِ شربتُ مرارتَهُ
كي أُسكِتَ صراخَ قلبي...
لتعرفي أنني
تعبت...
وتعبت...
لكنني، رغم كل التعب
أُحبّكِ.

السليمانية.. قصيدة لا تنتهي

قلتَ: ليست مدينةً ..
بل ديوانُ شعرٍ مفتوح
وأنا — الغريبُ الداخلُ إليها بذاكرةٍ مثقوبة —
أقفُ عند عتبةِ الكلمات
أتعثرُ بحروفٍ تتدفقُ مثل ينابيعِ جبالها
وأعرفُ أن القصيدة هنا
أوسعُ من القلب
وأعمقُ من اللغة.

جئتُ من صدق الكلمة
ومن دمعٍ يهاجرُ في شراييني منذ الطفولة
ومن منافي الوطن التي علَّمتني
أن الحزنَ لا يحتاجُ جغرافيا كي يتكاثر،
بل ذاكرةً واحدة
ترتجفُ كلما سمعتْ
اسماً يشبهُ الوطن.

في السليمانية ..
رأيتُ الشوارعَ تتحولُ إلى أبياتٍ شعرية
والبيوتَ تصيرُ مقاطعَ حنين
والجبالَ — يا الله! —
تنهضُ كأعمدةٍ تحملُ سماءً لا تسقط
وتكتبُ بقممها
نشيدَ البقاء.

وضعتُ نفسي نقطةً فاصلةً
في بيتٍ شعريٍّ يمرُّ من زقاقٍ ضيّق
حيثُ يبيعُ الأطفالُ أحلامَهم
على أرصفةٍ مزدحمةٍ بالغياب
وأدركتُ أني لا أملكُ سوى الانحناء

أمام وجوهٍ علَّمتني أن الكبرياءَ
ليس زينةً للقصائد
بل خبزاً يومياً للناجين.

سامحوني ..
إن قصرتْ لغتي في حملِ وجعكم
وسامحوني
إن تلعثمتُ وأنا أتهجى أسماءَ قراكم المحروقة.
أنا الذي خدِعَ بالخريطة
وأفاقَ متأخراً ليجدَ أن الدم
أسبقُ من كل المعاهدات.

لكنني عاهدتُ نفسي
أن أكونَ شاهداً لا يبيعُ التاريخ
وأن أكتبَ اسمَ السليمانية
على جدار القلب
كما تكتبُ الصلاةُ في ساعةٍ
لا يسمعها أحدٌ غير الله.

السليمانية ليستْ صرخة الحنين
إنها أرشيفُ البكاء المؤجَّل
وذاكرةٌ إنسانيةٌ تسكنني للأبد
هي المنفى والملجأ
هي قصيدةٌ تقرؤني قبل أن أقرؤها
وتسكنني قبل أن أدخلَ أبوابها.

فستان الخريف

يا ليتني كنتُ فستانَ الخريف
أُهدهدُ الريحَ بأزراري
وأتناثرُ أوراقاً ميتةً
كما ينثرُ عاشقٌ أسماءَ الراحلين
في دفاترَ لم تكملْ قصائدها.

يا ليتني كنتُ نايًا من غبارٍ قديم
تعزفني الصحراءُ حين ينامُ القمر
وتبكيني الغيومُ حين تتذكرها
ظمأَ الغريبِ إلى شجرةٍ لم تولَدْ بعد.

أفتحُ صفحاتِ الليل
وأُسقِط في هوامشهِ
همومَ الدنيا
وأحشو بياضه بوجوهٍ عبرتْ سريعاً
كقطاراتٍ لم تتوقّفْ
إلا في ذاكرةِ الغياب.

يا ليتني كنتُ غيمةً بلا وطن
تحملني الجهاتُ الأربعُ
كما تحملُ أمٌّ طفلاً أضاعَ نومه
وأوزعُ مطرَ قلبي على الأرصفة
كي لا ييبسَ حزنُ المارّين.

أنا ابنُ الريح
وصوتي من رمادِ الطيور
وأحلامي من عشبٍ ينبتُ
بين حجارةِ السجون.
أنا ظلٌّ يركضُ خلفَ نفسه
ويسألُ الغربة:
هل فيكِ بيتٌ يتّسعُ لقلبي؟

يا ليتني كنتُ فستانَ الخريف
تخلعني البحارُ على شواطئ الملح
ويلبسني النهارُ حين يشيخُ الوقتُ
ويصيرُ الحبُّ قارباً مثقوباً
كلما حاولتُ الإبحارَ به
ازدادت ثقوبُه
وازداد البحرُ اتساعاً.

أحلمُ أن أزرعَ وردةً
في قلبِ مقبرة
وأنتظرَ أن تزهرَ في كفِّ موتى
نسوا أسماءهم
لكنهم لم ينسوا
رائحةَ أمّهاتهم.

أنا الذي يكتبُ وجهه على الماء
ويتركُ للريحِ أن تعيدَ صياغته.
أنا الذي يسألُ الغيابَ:
هل يبرأُ الجرحُ إذا صمتَ الليل؟
هل يسقط الوطنُ من عيني
كما تسقط نجمةٌ من سُرّةِ السماء؟

يا ليتني كنتُ كتاباً
تخبئه العاشقاتُ تحتَ الوسائد
ويقرأ سراً في ليالي الوحشة
ثم ينسى على رفٍّ بعيدٍ
كما تنسى الأغاني القديمة.

أُريد أن أكونَ جسراً من الكلام
يمشي عليه العابرون
من غير أن يسقطوا في نهر الحزن.
أُريد أن أكونَ قمراً يتكسَّر
فتجمعني العيونُ في مراياها

وتظنُّ أني باقٍ ..
رغم أنّني هاربٌ من ضوئي.

يا ليتني كنتُ فستانَ الخريف ..
أُبعثرُ أوراقي
وأُخففُ عن كتفي
ثِقلَ الذاكرة.
لكني رجلٌ يشبهُ القصائدَ:
كثيرٌ من الصورِ فيه..
وقليلٌ من الراحة.

وحيُ القلم

يا قلمي ..
أيُّ نهرٍ جرى فيك حتى غدوتَ جناحاً من نار؟
أيُّ ريحٍ علَّمتك أن تحفرَ في الورقِ صرخةً
وأن تجعلَ من البياض بحراً لا ينضب؟

تكتب...
فتنهضُ من حبرك أوطانٌ غارقةٌ في الغياب
وتقومُ من رمادك أشجارٌ تشهدُ على موتنا وحياتنا.
تكتب...
فتنهضُ ذاكرةُ الدم ..
وتفتحُ المرافئُ أبوابَها للغرق
ويستيقظُ المنفيُّ من نومه الطويل
كما يستيقظ العاشقُ من خيبةٍ أبدية.

يا قلمي ..
أيها الجنديُّ الوحيدُ في معركةٍ بلا سيوف
أيها النايُ الذي يخرجُ من صدرِ الصمتِ أغنيةً
تشبهُ صلاةَ الأمهاتِ على أبواب المقابر.

أكتبك... فتكتبني
أهربُ منك...
فتلاحقني كظلٍّ يعرفُ كل دروبي
أصرخُ فيك...
فتصيرُ صدىً يسكنُ الحجارةَ العمياء.

يا وحيَ القلم ..
علِّمني كيف أجعلُ من نزيفي طريقاً للندى
ومن حزني قمراً يضيءُ فوق أسطح الغياب.
علِّمني كيف أقول:
إن الأرضَ لنا
وإنَّ الروحَ لا تموتُ

ما دام في صدرها بيتٌ للقصيدة.

أكتبُكَ ..
فتسقطُ من أصابعي نجوم
وتنبتُ على الورق سنابلُ خضراء
وتعودُ الطيورُ التي هجرتنا
إلى أعشاشها الأولى
لتعلن أن الوطنَ لا يموتُ
ما دام فينا حرفٌ واحد
يعرف كيف يشهدُ على الجرح.

يا قلمي ..
يا شهيدَ الكلمات
أيها الجسرُ بين غيمتين
بين موتٍ يحاصرنا وحلمٍ ينجو من الحصار.

أنتَ لستَ خشباً ميتاً
أنتَ جذرُ النار
وسهمُ الغد
وسرُّ الذين حملوا المنفى على أكتافهم ومضوا...
كي يبقى الوطنُ فكرةً لا تهزم.

يا وحيَ القلم ..
أنتَ النبضُ حين يخونُ القلب
وأنتَ الطريقُ حين تضيعُ الخرائط
وأنتَ البحرُ حين لا نجدُ سوى عطشنا
لنرتوي منه.

اكتبني كما تشاء ..
وامحُني كما تشاء ..
لكن لا تتركني للعدم.
فأنا فيك، وأنتَ فيَّ
وأنتَ وحدك تعرفُ
أن الحياةَ بلا قصيدةٍ

مقبرةٌ صامتة
وأن الوطنَ بلا حبرٍ
ظلٌّ بلا ذاكرة.

يا وحي القلم...
اكتبْ، ولا تتوقف
فالكتابةُ وحدها
تمنحُ الغيابَ معنى
وتحوِّلُ الموتَ إلى حياة
والنهايةَ إلى بدايةٍ أخرى
لا يعرفها إلا الشعراء.

كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ

كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ ..
حتى تلكَ التي اخترعتها الصدفةُ
على أطرافِ سيقانِ الشوق.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ ..
ولو كانت محمولةً على ظهرِ رياحٍ سجنت
في أوكارِ الحنين.
أنا الذي زرعتُ اسمي في جيوبِ الليل
وتركته كطاعونٍ للريحِ ..
كي يتبعكِ حيثما تمشين
أنا الذي كنتُ أعلمُ الطيورَ كتابةَ عناوينكِ
على جوانبِ النوافذِ الممنوعة
وأعلقُ على صدرِ البحرِ مفاتيحي
لئلا يغادرَ البحرُ ثم يعودَ باسمٍ أصدق منكِ.

أراكِ في البصيرِ ..
عندما يغفرُ القمرُ لليلِ هفواته
في رائحةِ الحطبِ ...
التي تفرُّ من المواقدِ كأنها تنجو.
أراكِ على شفتيّ المبللتين..
بأسماءِ المدنِ التي لم نزُرها بعد
أراكِ على خرائطٍ تهترئ بين الأصابعِ
حين تحاولُ ..
أن تسجل مصيرَ الهويةِ على هامشِ الورقِ.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
حتى دروبٌ نسيتها الأسفلتُ
حتى طرقٌ نقشَ عليها الليلُ صلواته ثم جفت.

أحببتكِ ..
كما يحبُّ السجانُ ما بقي من الحرية
كما يحبُّ الجائعُ لقمةً سُرقت من فم الزمن

كأنّي أُخاطبكِ من داخلِ مرآةٍ مهشَّمةٍ
والشظايا تبكي موسيقى المسافات.
هي ليستْ سماءً فقط
بل كلمةٌ حاولتْ أن تولد
فأدركتْ أن شفتيكِ أتقنتاها قبل أن أقولها.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
حتى التي تعتمر قبعات الغياب
وتسير في مواكب الصمت بلا موكب.

في مدينتي قمرٌ ..
يقرأ رسائل الهجر على أحزمة الأقمار
وفي حاراتنا ..
هناك بائع أوجاعٍ ...
يبيع الفرح بثمن ذكرياتٍ مستعملة.
تعرفين كم تعبتُ من حمل الحروف على كتفيّ؟
كم اتسع قلبي ..
كي يستوعب نقاشَ بلادٍ مع صمت امرأة؟

أنتِ ..
يا من تزرعينَ طرقكِ على صدري ..
تجعلين الشوارع
تستعيد أسماءها بعد الضياع:
يا من تدافعين عني عندما أتعثّر في مفترق النوم
يا من تسرقين القطار من محطة اليأس
وتعيدينه محمّلاً بالمسافرين الذين نسيناهم.

أكتبكِ باسمٍ يرفض أن يكون اسماً
أكتبكِ كأنّي أمحوكِ
ثم أعيد رسمكِ بطرف عصاٍ ناعمة
أكتبكِ كما يكتب المطر على صدور العصافير سورَه
وكما يكتب الزيتون..
رسائله في صخر الأرض الذي لا ينام.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ ..

حتى الطرق المكسورة
تنتج في نهايتها ..
قصائد قديمة تلد الحديثة.

تذكري لي هذا الصباح:
كانت المدينة ترتدي وشاح الدخان
وكانت السماء
تصوّر وجهي على جدرانها
وكانت النوافذ
تتبادل النكات مع الصباح
وأنا
— مثل من يعثر على مفتاح في جيب زمن آخر —
جلستُ أعدّ درجات الشوق كي أصعد إليكِ.
أحببتكِ ..
كما يحب التاريخ حريته
كما تحب الكلمات ..
أن تصبح أغنيات قبل أن تغادر الحلق.

يا امرأة أحلامي، يا مدينة لم تكتب بعد:
أخبريني..
كيف نجعل من الانتظار موطناً؟
كيف نجعل من الألم مطر سنبل
ومن الصمت ..
جسراً يعزف على أوتارنا؟
هل تفضلين أن نرحل معاً في صندوق القطار
أم أن تبقى ذاكرتنا هنا
ترتشف دخان المساء
وتعزف لحن العودة على مدرج العصافير؟

أحببتكِ ..
بحيث صار الحب سلحفاةً
تحمل على ظهرها خريطة العالم
حيث ما أن تفتح فمها ..

حتى يخرج الضوء بتذكرة مرور من ذهب.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ ..
حتى التي تلعب مع الريح لعبة الخفاء
حتى التي تصدق زواجها من الغياب
ثم تلد فجأة نهراً من الضحك.
أنا هنا ..
أقطفكِ من بين جموع الأشياء الصغيرة:
من فنجان قهوة ..
قد نُسي على طاولة الانتظار
من خاتم قديم
نحته البحر باسم الحنين
من حرف أخير
قرأه الربيع قبل أن تهرب الطيور.

أيتها التي تزرعين في قلبي طرقاً بلا أسماء
قد تريني أحياناً
كأنّي عابر سبيل على جسر الزمن
لكنّي أصحو دائماً على موسيقى وجودكِ
على إيقاع قدميكِ
حين تمرّين على حواف الدرس
على ظلّك الذي يسمع خبر المساء
ويقاطعُه بعناق طويل.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ ..
حتى ألف طريق لا تحب الأرقام
حتى سبعون درباً من عظام البحر.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
وكأنكِ مدينة لا تُنسى
في قاموس النهايات.

سأحمل لكِ بيتاً من بيوت القصيدة
سأُحيله إليكِ كهدية زواج
سأجعل منه مزلاجاً
يتيح لكِ الدخول متى شئتِ.

لن أطلب منكِ ...
أن تحنين لماضي المجروح فحسب
بل أطلب منك أن تعلّميه كيف يبتسم
أطلب من عيونكِ
أن تُدرّب الليل على الرقص
حتى يصبح الغياب أخاً يحضننا ثم يذهب.

أنتِ — يا من يحملن على أكتافهن الربيع سراً —
تعيدين لي لغتي حين تتلعثم في الطريق
تعيدين لي هدوءَ القهوة ..
حين يتهجّى الفجر أسماءه
تعيدين لي مكاناً للغضب ..
حين يشتعل فيّ التاريخ.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
حتى التي تتبخّر كأوراق الشاي
حتى التي تكتب لكِ باسم آخر في قوائم الانتظار.

فلتكن هذه الكلمات حجراً في جيبك
لا للرّصاص ولا للسجلّ
بل ليكون شاهداً ..
على أننا نمشي معاً في ظلال الأشياء
على أننا نصنع من الفراق
طريقاً ذا نوافذ صغيرة تضيء.
أنا هنا ..
أعدكِ بالأسماء التي لم تستعمل بعد
أعدكِ بالبحر
الذي سيهديكِ حبيباً من رمال قديمة
أعدكِ بليل
لا يقاس بالساعات بل بما نخبئه من أسرار.

كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
حكماً ..
ونثراً ..

ونشيداً.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
حتى طريق لا يغلقه أحد
حتى طريق يصنع ..
من عيوننا عندما نغمضها معاً.
أراكِ في آخر ما تبقّى من الحكاية
في آخر قطعة خبز نقسمها بيننا ..
حين يمتنع الليل عن العطف.
أراكِ في صمت القناديل
التي تعلقها المدينة على جفونها
أراكِ في قصيدة تولد
ونحن نرقص فوق رمادها.

وبينما أكتبكِ ..
أعلم أن الكلمات لا تفيكِ
لكنّي أصر على أن أحتمل الفشل لأجلكِ
أصر على أن أكون ناقصاً ..
كي أترك لكِ موطئ قدم
تلتحفين به كلما أردتِ أن تدخلي بيت الشعر.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
هذا وعد لا يحتمل النقاش
هذا وعد منقوش على قرص القمر وعلى جدار الملح.

يا امرأة كل الطرق ..
تعالي: لنمزح مع الخرائط
لنصنع أسماءً جديدة للمدن
التي سنعيش فيها بعد قليل
ولنترك للزمن مهمة أن يعيد ترتيب الأشياء.
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
فلماذا نتردد إذاً؟
كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
فلتأتِ أقدامكِ كأقواس قيثارة
تعيد لنا النغم الذي نضعه في جيوب المساء.

كلُّ الطُّرقِ تُؤدّي إليكِ
وهذا يكفي أن يكون قانوناً
نحيا به..
نكتب به..
ونموت على سطره الأخير:
أنتِ.

قد أحتضن الموت قبل أن أنساكِ

قد أحتضن الموت قبل أن أنساكِ ..
قد أتنفس الرماد بدلاً من الهواء
قد أختفي في زوايا الليل التي لا يعرفها أحد
وأظل أبحث عنكِ ..
في انعكاسات الظل على جدران المدينة.

أموتُ اشتياقاً ..
أموتُ احتراقاً ..
أموتُ صمتاً ..
أموتُ عنفواناً ..
لكنّي لا أستسلم لموت حبنا
فحبكِ لا يذوب، ولا ينكسر
ولا تعرفه الساعات، ولا تصفه الكلمات.

أراكِ في وجوه الغيم حين يسقط المطر
أراكِ في زقزقة الطيور حين تغني المدن الغريبة
أراكِ في البحر حين يكسو الأمواج لون الغياب
أراكِ في شظايا الضوء ..
حين يطرق النافذة على صمتي.

لو غابت السماء، سأبني لكِ قبةً من أصابعي
لو ضاعت النجوم ..
سأزرع لكِ سماءً من الصمت والخيال
لو سكتت المدن ..
سأكتبكِ على جدران الزمن
وسأظل أكتبكِ ..
حتى يقرّر المطر أن يهطل فوق عينيكِ.

أحببتكِ كما يحب الغريب مدينته الضائعة
كما يحب السجين قصيدته التي لم تُقرأ
كما يحب الطفل خيالاً لم يولد بعد

وكما يحب البحر نفسه حين يعانق الشاطئ.

كل شيء فيّ يصرخ باسمكِ
حتى الحجارة التي مشيت عليها
حتى الريح التي حملت حفيف شعركِ بعيداً
حتى الليل الذي ينام على صدري
ولا يعرف أي سبيل للوصول إليكِ.

قد أموتُ ألف مرة ..
لكنّي سأظل أحتفظ باسمكِ
في قلبي كأول حقيبة للمسافر
وسأظل أغني لكِ
في الصمت الذي لا يسمعه أحد
وسأظل أكتبكِ في الخرائط
التي لم يسجّل عليها أي مسار.

أنتِ — يا من حملتِ الشمس في شعركِ
وحملتِ القمر في ابتسامتكِ
وحملتِ كل المدن في عينيكِ —
أنتِ لا تموتين، ولا يقترب منكِ الموت
فأنتِ الحاضر الدائم..
والسماء المفتوحة ..
والريح التي لا تهدأ.

لو قررتُ أن أتركِ ..
سأظل أعود، مثل الليل الذي لا يعرف نهاية
مثل البحر الذي لا يعرف الحدود
مثل نداء القلب ..
الذي يصرخ باسمكِ قبل أن يعرف نفسه.

أحببتكِ حتى صار صمتي لغةً
وصارت كلماتي أشجاراً تنمو في صدري
وصارت دموعي أمطاراً تروى بها الأمل
وصار كل شيءٍ في هذا العالم دليلاً على حبكِ

حتى الغياب أصبح حضوراً ..
وكل فراغ أصبح معكِ ممتلئاً.

أموتُ، نعم ..
لكن ليس حبكِ
أموتُ، نعم ..
لكنكِ دائماً في جسدي
أموتُ، نعم ..
لكنكِ روحٌ لا يعرف الهزيمة
أموتُ، نعم ..
لكنكِ الحب الذي لا ينتهي
الذي يصرخ في قلبي حين ينام العالم
ويعود ليضيء كل لحظة من حياتي ..
حتى وإن غاب كل شيء.

ما لم يقله الطريق

يحاصرني واقعٌ لا أُجيدُ قراءتَهُ
ينسابُ من بينِ أصابعي
كالرملِ من ساعةٍ قديمةٍ
أسمعُ صدى خطواتي في ممرّاتِ الظلالِ
وأرى وجهي ممثَّلاً ..
على جدرانٍ لم تعرفني من قبلُ.

قلتُ: دوّنْ إذنَ ..
ذكرياتِكَ عن نجمةٍ بَعُدتْ
عن ضحكةٍ تركتْ حوافّ السماءِ مشتعلةً
عن غيمٍ حمل صورتكَ ثم اختفَى خلفَ المدينةِ
عن ضوءٍ طرقَ نافذتي في منتصفِ الليلِ
فلم يجد إلا ظلي يهتفُ باسمِكَ.

غدٌ يتلكّأ ..
يمشي على خطواتٍ ثقيلةٍ
يسقط في حفرةِ الانتظارِ
ويرتجفُ كقلبٍ أحبَّ بلا معرفةٍ.
أسألُ خيالي: هل كان يعلمُ
أنّ طريقَكَ هذا طويلٌ؟
هل كان يعلمُ أنّ كلّ خطوةٍ منكِ
تولدُ في قلبي ألفَ دربٍ أخرى؟

أرى مدينتي تنهارُ أمامي
ليس من حربٍ، ولا من زمانٍ
بل من صمتِ ناسٍ لم يفهموا لغتي
ومن حروفٍ رفضت أن تتشكّلَ
في جملةٍ واحدةٍ تخبركَ عني.

أمشي على رصيفٍ قديمٍ
ألمسُ جدراناً لم تكتب عليها قصصٌ

أستمعُ إلى الريحِ تهمسُ: «ابحثُ عنك»،
وأحفرُ في ذكرياتِكَ ..
كأنّي أستخرجُ أحجاراً نادرةً
أضعها على صدري كي لا أضيعَ
في عالمٍ صار بلا أسماءٍ.

أحببتُكَ ..
كما يحبُّ العابرُ طريقاً بلا نهايةٍ
كما يحبُّ الغريبُ بقايا وطنٍ في صمتِ نوافذِهِ
كما يحبُّ البحرُ نفسه
حين ينهضُ الليلُ ليغنّي على الشواطئِ.
كلُّ شيءٍ فيّ صارَ لكَ:
حتى صمتي الذي يملأُ الغرفةَ
حتى ظلي الذي يتبعكَ ولا تراهُ عيناك.

أكتبك على جدرانِ الزمنِ
أكتبك على صفحاتِ المطرِ
على قلبٍ لم يتوقّفْ عن النبضِ منذ عرفكَ.
أرسلُك على الريحِ ..
فتسافرُ إليكَ
كي تسمعني قبل أن تعرفَ أنني هنا.

أنتَ النورُ الذي لا ينطفئُ
أنتَ الصوتُ الذي يصرخُ في صدري دون انقطاعٍ
أنتَ الحضورُ الذي لا أعرفُ له نهايةً
أنتَ الظلُّ الذي يجعلني أعيشُ عتمةً مضاءةً باسمكَ.

كلّ يومٍ أستيقظُ، أجدُ الواقعَ لم يعتدْ عليَّ بعدُ
يراقبني ..
يختبرُ صبري ..
يختبرُ قوتي
فأبتسمُ لأنّي أعلمُ أنّ خيالكَ يسافرُ معي
يمشي أمامي كنجمةٍ لم تفقدْ نورها

تحرسُ خطواتي..
تغنّي صمتي ..
تعيدُ إليَّ معنى الأشياء.

قد أضيعُ في طرقاتٍ لا تنتهي
قد أقفُ أمام أبوابٍ لم تفتحْ بعدُ
قد أبحثُ عنكَ ..
في كلّ زاويةٍ من زوايا المدينةِ
ولكنّي أعلمُ — أعلمُ — أنّ الخيالَ لا ينسى
وأنَّ الذكرى تكتبنا معاً
حتى لو فرَّ الوقتُ من بين أصابعِنا.

لا تعودوا أبداً

عندما تريدونَ الرحيلَ...
ارحلوا بلا ظلٍّ يلاحقكم
واحملوا معكم من الوداعِ ..
ما لا يثقلُ السفرَ: ابتسامةٌ نصفُها وداعٌ
وركعةٌ من نورٍ تخبّئونها
في جيوبِ المعطفِ
كأنّها عملةٌ نقديّةٌ من الغيم.

ارحلوا بلا ظلالٍ ..
كي لا ترسموا على الطرقِ وجهاً يشتاقُ للعودة
فليس في الرجوعِ فائدةٌ
إن لم تتركوا وراءكم خيطَ حنينٍ يقطعُ البحر.
لا تعودوا أبداً ..
فالعودةُ قد تكونُ جرحاً ..
يعيدُ ترتيبَ الشظايا
ورغبةً تحاولُ أن تصنعَ من الندبِ مأوىً للمجانين.

لا تحملوا الريحَ في أعينكم
فالعينُ ليست مهبطَ رياحٍ
ولا مرسى لسفنِ الغياب
إنّها مرآةٌ تحفظُ أسماءَ الراحلين على صفحةِ الماء
وتوقيعَهم على ظهرِ القمر.

لا تتركوا على الشاطئِ ..
قبقابَ خطواتٍ ما عادت تنتمي إلى الأرض
ولا تضعوا في جيوبِ الليلِ
أرجوحةَ القمرِ التي تكبّلُ أقدامَ المحبّين.
اتركوا خلفكم مسافةً نظيفةً ..
كي لا تسجَّلَ العودةُ في محاضرِ العدم.

كونوا للرحيلِ أوفياءَ

كونوا كما كنتم في البدءِ:
أهلَ الليلِ حين يغادرون بغيرِ تظلّمات
يودّعونَ بقبلةٍ على جبهةِ المدينة
ثمّ يرحلونَ دون أن يضيّعوا مقعدَ الانتظار.

أما أنا...
فقد كنتُ للانتظارِ ساقاً في حجرِ الريح
نبتةً صغيرةً تأبى أن تموتَ ..
حتى لو نُسيتْ أسماؤها في خرائطِ الغياب.
يشتدُّ انتظاري كما يشتدُّ الغصنُ بعد المطر
وأظلُّ أعدُّ لكم مواقيتَ المطر.

لعلّنا نكونُ أيضاً — أصدقاءَ لحزنٍ واحدٍ —
نمسحُ عن الشوارعِ غبارَ العداوات
نخلعُ من الذاكرةِ أحذيةَ الاحتياجات
ونمشي حافينَ إلى ما تبقّى من قصائد.
لنسافر مع الغيابِ بلا عودة
كأنّ الرحيلَ طقسٌ مقدّسٌ ..
نعيدُه كلما ضاقتِ الدنيا بأحجامِنا.

لنسيانِكم... مخلصين.
ليس نسياناً بل طقسَ إكرام:
نودّعُ ذكرياتِكم في أوانٍ من ملح
ونزرعها شجراً ..
كي لا تنبتَ من جديدٍ إلا بصوتِ المطر
ذاك المطر الذي عرفَكم
وسجّلَ أسماءكم على الغصون.

وأنا هنا...
أحصي خطواتِكم في صمتِ الغروب
كأنّي عدّادٌ لليلٍ لا يخطئُ الحساب
أحتفظُ باسمِكم على حافةِ الشاطئ
كما يحتفظُ البحرُ بسرّه

وأغنّي لكل طريقٍ
أغمضَ عينيه عنكم كي لا تعودوا... أبداً.

منذ رحيلِكم صرتُ أبحثُ عن الأشياءِ الصغيرة:
عن علبةِ كبريتٍ
تبثُّ رائحةَ لقاءٍ قديم في معطفِ الصباح
عن مقعدٍ في مقهى
يجرّ خلفه وجعَ فنجان
عن رسالةٍ لم تكتب بعد
وعن حزنٍ أبى أن يصبحَ مفردةً
في قاموسِ النسيان.

أحاولُ أن أعيدَ ترتيبَ البلادِ على طاولةٍ صغيرة:
أضعُ المدنَ في جيوبِ المعطف
والأسماءَ تحت وسادةِ الحلم
أخلعُ عن الخريطةِ أصابعَ الحدود
وأمسحُ تلالَ النسيانِ بكفّي،
لكن هناك دائماً
ما يعيدني إلى الشجرةِ التي علّمتني
أن أزرعَ وجعي بدلَ أن أدفنه.

يا أيّها المسافرون ..
لا تسرقوا من العمرِ آخرَ ساعةٍ من البوح
خذوا معكم أغانٍ لم تُغنَّ بعد على حبالِ الحمام
واتركوا خلفكم أحذيةً قادرةً على أن تمشيَ وحيدة
فالمسافاتُ هنا لا تكبرُ ..
إلا إذا حملتم معها ثِقلَ الذكرياتِ المرصوصة
كأحجارٍ على صدرِ البحر.

أنا الذي أحبّتني الأرضُ بغيرِ مقابل
وحين رَحلتُ عن وجهِها ..
عدتُ أتبنّى كلَّ غيابٍ على أنّهُ موطن.
رأيتُ وجوهكم تتقاطرُ كالمطرِ على صفحاتي

فصرتُ أعدُّ لكم مواقيتَ المطر
وأكتبُ بطاقاتِ ائتمانٍ للعصافيرِ
كي تشتري ليلها ما تشتريهُ من ضوء.

في غيابِكم تعلمتُ لغةَ الأشياء:
الملاءةُ تقولُ شيئاً لا تقولهُ اليدان
المرآةُ تخبرني بأخبارِ الوجهِ
كما لو أنها مراسلةُ زمنٍ مفقود
والساعاتُ تتحولُ إلى حباتِ عقدٍ أعدُّها
لأزيّنَ عنقي بالانتظار.

أدري أن الرحيلَ قد يكونُ ملاذاً ..
أو محضَ هروب ..
أو خدعةً من خدعِ الضوء
لكنّي أحببتكم على قدرِ الاحتياطات:
أحببتكم ..
كما يحبُّ من يزرعُ شجرةً ..
في مدينةٍ بلا أسماء
أحببتكم ..
كما يحبُّ البحرُ ثغرةَ الموجِ ..
في صدرِ الصخور
كأنّ الحبَّ اختبارٌ لصمودِ الأشياءِ
حين تصطدمُ بالعدم.

أمسكتُ بيدِ الغيابِ مرّةً، فلم تجرحني
بل علّمتني كيف أكونُ مهذباً مع الغياب
أن أفكرَ في الرحيلِ كأمرٍ ممكن، لا كعدوٍّ عنيد
أن أحبَّ الحزنَ ..
كما يحبُّ المزارعُ موسمَهُ:
نظيفاً، مسلوبَ الخوف.
أن أتركَ لكم ..
أيّها الراحلون ..
نصفَ مقعدٍ في الذاكرةِ تجلسون عليه إن رجعتم.

لا تعودوا أبداً...
قلتُها لأنّي أخافُ أن تعيدوا ما لكم من نِقَم
أخافُ أن تكونَ العودةُ
ارتكاساً في مرآةٍ محطَّمة.
فالصورةُ حين تنكسر ..
تنكسرُ معها الوعودُ الصغيرة
وتبقى علينا فقط نزعُ الشظايا.

لكن إن رجعتم ..
وإن شاءت السماءُ لكم أن تأتوا
— فلتهبطوا رفقاء
لا تدخلوا البيتَ كغرباءٍ
يقرؤون الخرائطَ للمرّة الأولى
ادخلوا كما يدخلُ من يعرفُ
أن في الجدرانِ أصواتاً تنتظرُ الكلماتِ لتتوقّف
ادخلوا وقد جئتم لتجلسوا على الحروفِ
التي صرختْ بأسمائكم قبل أن تتعلّموا النطق.

أما أنا فلي ليلٌ طويلٌ أودّ أن أقسمَ عليه:
قسمٌ أنني سأبقى
أكتبُ أسماءَكم ..
كما تكتبُ الريحُ عناوينَها على الرمال
أكتبُها حتى تصبحَ حروفُها أعمدةً على الطريق
حتى يمرّ عليها المارّون ويقولون:
هنا كان يوم ..
هنا كان وداع ..
هنا كان حبّ.

وأمنيتي الأخيرة أن يكونَ الرحيلُ ببساطةِ رغبة:
رغبةٌ في أن تعبرَ النكباتِ كما تعبرُ الطيورُ
لا تفشي شيئاً من أجنحتها
رغبةٌ في أن نتركَ وراءنا أشياءً صغيرةً تذكرنا
بأننا قد أعطينا للحياةِ بعضَ ما تستحق:

ابتسامة ..
قبلة ..
قصيدة.

فإذا رغبتم في الرحيل — ارحلوا
وإن شئتم أن تبقوا — فابقوا.
أما أنا فكنتُ وما زلتُ
— بينَ المدّ والجزر — أعدُّ لكم ألوانَ الرحيل
أروضها كما يروضُ العاشقُ
لحنَهُ قبل أن يرسلهُ بالبريدِ إلى من يحب.

وإذا طالَ الانتظارُ ..
فليكن طويلاً كأمطارِ الخريف
فكلُّ قطرةٍ منها تحملُ اسمَ واحدٍ منكم
وأنا سأقفُ على النافذةِ
أقرأهُ بصوتٍ منخفضٍ
كي لا تخبطَ به الريح.
لئلا تعودوا... أبداً
فتتبدّلَ الصورةُ ويحتاجَ القلبُ
مرةً أخرى إلى امتحانِ الصبر.

هكذا أعدّ لكم الرحيل: طقساً مهذّباً
لا يتركُ وراءه سوى أسئلةٍ لطيفة
أسئلةٌ نجيبها بصمتٍ على حافةِ كأسِ شايٍ بارد
أسئلةٌ تقول: هل كان الحبُّ كذلك؟
وهل كان الوداعُ بهذه السهولة؟
ونبتسمُ نحنُ لغيابٍ تعلّمَ
أن يكون نقيّاً كقصيدةٍ لم تُقرأ بعد.

فامضوا ..
— ولا تعودوا أبداً —
إن كنتم تريدون الرحيل
لئلا يركبَ على ظهوركم ما لا يليقُ بالمسافرين.

وابقوا — إن أردتم — لتتسلّلوا إلى وجهي
فتعرفوا أني لم أمت، بل أحببتُكم أكثر فأكثر.
أما أنا...
فلكم في الليلِ مقعد ..
وفي الصباحِ جرسٌ يرنُّ باسمِ الفجر
ولكم في القلبِ نافذةٌ لا تُغلق
إلا حين تعلنون أنكم لم تعودوا.

وهنا ..
عند حافةِ الشاطئ، أكتبُ أخيراً:
لو كنتم تعرفون كم هو سهلٌ عليّ أن أحبّكم
وكم هو صعبٌ عليّ أن أطلبَ منكم ألّا تعودوا
لكنتُم الآن تجلسون معي
أو رحلتم عنّي ..
برفقٍ يكفي ليمحو عنّي ظلالَ الحزنِ الثقيلة.

ارحلوا إذن...
ارحلوا كما يرحلُ الظلُّ
عن صدرِ الشجرةِ عند الظهيرة
بلا ضجيجٍ كبير ..
بلا رسالةٍ طويلة إلى الأزمنة.
واتركوا للعصافيرِ رسالةً قصيرة:
«اشهدوا أن الحبَّ كان هنا» — ثمّ طيروا.

قيلَ لنا إنّ الحبَّ ليس إلّا طريقةً
لنَعُدَّ بها الأيامَ حتى يعودَ الغائبون
لكنّي أفضّلُ أن أعدّها على حدة:
كلُّ يومٍ اسم..
وكلُّ اسمٍ عيدٌ صغيرٌ في غرفةِ الظل.

لا تعودوا... أبداً.
يا رفاقَ الرحيل، هكذا أفهمُ الوفاء:
أن تتركوني أكتبُ عنكم حتى تفنَى الآهات

أن تتركوني أعدّ لكم قصيدةً
حتى يصبحَ الانتظارُ قصراً
بُنِيَ من أنفاسِ الشوقِ وحدها.

وإن عادَ أحدٌ منكم — فاتركوه يفتحُ النافذةَ بهدوء
دعوه يجلس ..
دعوه يسأل ..
فإني سأبوحُ لهُ —
ليس بما فقدت، بل بما اكتسبت:
أسماءً جديدةً للأشياء
وطرقاً أخرى للحبّ لا تصرخُ في الساحات.
إنّي أحببتُكم، وهذا يكفيني:
كفٌّ على القلبِ حين يؤبّرُ جرحَهُ بحبرٍ أبيض.

سأصير ما أريد

سآخذُ من الليلِ قيثارةً ..
ومن الصدورِ خمائلَ من نورٍ مبعثرٍ
وأغزلُ من أسماءِ الغيابِ عباءةً
أدفعُ بها الريحَ ..
حين تتحلّقُ فوقَ المدنِ كطيورٍ ضائعةٍ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
ليس كأمنيةٍ تلقى على رصيفِ الانتظارِ
بل كطريقٍ يحدثُ نفسهُ كل صباحٍ
كقهوةٍ تشربُ بلا عجلٍ على شرفةِ الزمنِ
كحكمةِ طفلٍ ينحتُ من خبزهِ قُبّةً للسماءِ.

أنا الذي حفرتْ في أحلامي خريطةَ غائبٍ
أنا الذي علّمتهُ المشاهدُ
أن يقرأَ الخوفَ كحروفٍ على جدارٍ قديمٍ
أنا الذي سرقتْ منهُ الأيامُ ساعةً من ذاكرتهِ
فصار في جسدهِ بستاناً من أسئلةٍ لا تثمرُ إلا صمتاً.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
مثل بيتٍ لا يغلقُ في وجهِ العابرينَ
مثل امرأةٍ تعلمت من البحرِ الأمانةَ
مثل خبزٍ يرفضُ أن يكونَ خبزاً بلا اسمٍ
مثل نغمٍ يردُّ على الرصاصِ الأغنيةَ.

يا أيها الوقتُ، إن كنتَ صندوقَ أشياءٍ مسروقةٍ
فخُذْ مني الذكرياتِ التي لا تتسعُ للحياةِ
واعد لي الصباحَ الذي رَكنتُ فيهِ كالأشياءِ
أريدُ أن أعودَ حراً بلا سببٍ وبلا تهمةٍ
أريدُ أن أكونَ على الأرضِ كما تكونُ السماءُ:
بدون استئذانٍ، بلا إذنٍ من الصمتِ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
لأزرعَ على حدودِ الكلامِ ..
وردةً لم تُزرعْ من قبلٍ
لأختصرَ المسافاتِ ..
بيني وبينَ المولودينَ من الحنينِ
لأعلّمَ المدنَ كيف تحبُّ من دونِ حسابٍ
وأعلّمُ الجراحَ أن تكونَ ملحاً لا يقتلُ
بل يذيبُ الظلالَ.

أذكركم أيها الناسُ الذين اقتسموا معي الليلَ
أذكركم بصوتي الذي كان فاكهةً تحتضرُ
بأسمائكم التي كانت سفناً صغيرةً في مرآةٍ طويلةٍ
بعيونٍ رأت ظهوري
ثم اختفت ككتابٍ لم يقفل على نهايتهِ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
وأكتبُ في صدري ديواناً لا يضمُّهُ ضميرٌ واحدٌ
سأعلّمُ الهواءَ كيف يوقِفُ الحزنَ عند مفترقِ الطرقِ
وسأخبِرُ القناديلَ أن تنطفئَ لئلا تخفي نجمةً أبديةً.

أعترفُ لكم: كنت أختبئُ في أكمامِ طفولتي
وأحادثُ فيها من ليس لهم قرارٌ ..
من ليس لهم اسمٌ
كنت أزوّر الخرائطَ ..
في جيبي لأجد مكاناً لا تلعنهُ السياساتُ
كنت أبتسمُ للأزقةِ
كما لو أني ألد كلماتٍ جديدةٍ كل صباحٍ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
كما يصير الحجرُ ذاكرةً إذا مر عليه كفُّ طفلٍ
كما يصير الجوعُ درساً في تاريخِ الأجسادِ
كما يصير الحبُّ مدينةً تُبنى من رفاتِ الأطلالِ
كما يصير الصمتُ بلاغةً لا يحتاج فيها إلى ترجمانٍ.

ليس طموحاً أن تحمل اسمك على صندوقِ السفرِ
بل طموحٌ أن تحمل فيكَ اسمَ الأرضِ بلا استئذانٍ
أن تعيد إلى الشوارعِ الألقَ الذي سُرقَ من أوراقها
أن تعلّم الزواياَ كيف تغنّي دون مدحٍ
أن تكونَ ليلَ غير قابلٍ لأن يباعَ في مزاد الأحزانِ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
وستأتي الساعةُ التي لا يسأل فيها الليلُ عني
التي تزرع فيها اليدُ خبزها من نورٍ مستباحٍ
التي تضحك فيها الوجوهُ بلا كلفةٍ في العينِ
التي تنتهي فيها الحروبُ ..
لأننا عرفنا أن نحكي لبعضنا قصةَ الوجودِ.

يا رفيقي الذي ضحك حتى بكيتُ
يا رفيقي الذي بكيت حتى ضحكتُ
تعلّمنا أن نكون خُطى لا تعرف الرجوعَ إلى الأنقاضِ
تعلّمنا أن نزرع على حافة البحر شجرةً اسمها الحلمُ
تعلّمنا أن نخط على الرمال أسماءَ من لم يولدوا بعدُ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
ولن أكتفي بأن أكون عنوانَ خطابٍ بلا مستقبلٍ
سأكتب على الباب: "هنا بيتٌ من لا يخافُ"
وسأرمي بالمفاتيح القديمة في قاع النهر
لأبني من ذاك المفتاح قُبّةً تُدفئ العائدين.

وإذا جاء من يقول: وماذا بعد أن تصير؟
أقول: سأصير ظلّاً يحمي أشجارَ الذاكرةِ
سأصير خبزاً يقطَع على الطاولات بلا سؤالٍ
سأصير أغنيةً تعلّم الأطفال كيف ينسون المرارةَ
سأصير بيتاً لا تغادره الدواوينُ.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
ولست شديد الغرور ..
إذا قلت إنّي أرى في وجهي رحلةً

أرى مصباحاً عتيقاً يوقظ المدينةَ من سُباتها
أرى يداً تحمل مرآةً لم يرها أحد من قبلٍ
أرى شيئاً بسيطاً اسمه العودةُ
دون أن نسأل من ترك الباب مفتوحاً.

أمضي، وأحمل معي حقيبة الأسماءِ القديمةِ
أضع فيه حبات الكلام التي لم تُنطق بعدُ
وأمضي، كما يذهب من يترك خلفه موسيقىً
لا أريد أن أكون ذاكرةً لوحدي
أريد أن أكون بيت كل من مر ولم يجد مأوى.

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ ..
وهذا العهدُ ليس شجرةً تُقتلع بمجرد ريحٍ
إنه وعدٌ نقشته على ظهرِ جلدِ الزمانِ
نقشٌ يقرأه العابرون حين يمرون على نوافذي
فيعرفون أن هناك رجلاً أو امرأةً
يغنون خُبز الصباح بصوتٍ لا يُزيّفه الموتُ.

فهلم أيها المسافر ..
الذي أهمل حقيبته في محطة المطر
هلم أيها الذي تركت كلماتك تُرمى في حاجز التلفظ
هلم أيها القادم من بلاد بلا أسماء
تعال، فهناك مساحةٌ كافية فوق سقفي
لتجلس، وتقول: سأصير يوماً ما أُريدُ

همسات الريح والحجر

ليتني جسدٌ من صمت
كي أتمدد بلا دماء
وأغفو على وجع الغيم
وأتلوّى بين أضلاع الريح
كي لا أسمع صدى الضحك الذي سرقه الزمن
ولا أرى وجوه المارين كما لو أنهم أحلامٌ مهشمة.

ليتني صخرةٌ على حافة البحر
أدرك أن الأمواج لا تترك أثراً
وأن كل النجوم تمشي في الليل بلا وجه
أحتفظ بكل همسٍ لم يولد بعد
وأسجل كل صرخةٍ لم يجد لها صدى
كي أكون أعمق من الريح
وأهدأ من الغياب نفسه.

ليتني حجرٌ ..
لكن حجراً لا يعرف النسيان
يحمل في شقوقه تاريخاً لم يُكتب
وصوتاً لم يسمعه أحد
ورائحة المطر التي تتسلل بين الجبال
ليتني حجرٌ يضحك بلا فم
ويبكي بلا دموع
ويحتفظ بكل العيون التي لم تُفتح بعد.

أحلم بأن أكون جبلاً ..
يغفو العالم عند قدميه
ويحكي للرياح سرَّ الأشياء الصغيرة:
عن الأطفال الذين فقدوا ألعابهم
وعن المدن التي نسيت نفسها في منتصف الليل
وعن العصافير التي هجرت النوافذ

وعن صمتٍ كبيرٍ يلتهم كل الكلمات.

ليتني كوكباً صغيراً ..
يحمل نور الشمس في قلبي
ويختبئ من الليل الذي يأكل الجميع
حيث لا يعرف الخوف طريقه
ولا يصل اليأس إلى بابي
ولا تتسلل الذاكرة لتقتل اللحظة.

لكنّي لست حجراً ..
ولا جبلاً ..
ولا كوكباً ..
أنا أنا...
وأمامي العالم يركض بلا توقف
والأيام تنسدل على كتفي كخيوط المطر
وأحاول أن أتنفس
لكن الهواء يثقل جسدي ككوكبٍ على صدري
وأحاول أن أتحرك
لكن الزمن يسحق جسدي مثل صخرةٍ منسية.

ليتني حجرٌ...
لكنّي أكثر من صمت
أكثر من انتظار
أكثر من الأمواج التي تفرُّ بلا أثر
أحمل في داخلي بحراً من الأسئلة
وصدىً لكل الأحلام التي لم تتحقق
وألواناً لم يرَها الضوء بعد
وأغنيات لم تسمعها الأذن
وأقداراً لم تكتمل
وأياماً لم يولد لها تاريخ.

ليتني حجرٌ...
لكنّي إنسان

يحسدني الحجر على شعوري
والأيام تحسدني على صبري
والكون كله يراقبني من بعيد
وأقف صامتاً
أحتفظ بكل ما فات
وأحلم بكل ما سيأتي
وأسمح للزمن أن يمرّ من خلالي
كأنه شلالٌ لا يعرف النهاية
وحيث كل شيء ممكن
حتى للبكاء أن يكون حراً.

ليتني حجرٌ ..
لكنّي أحمل في قلبي ناراً صغيرة
تصرّ على البقاء
تسأل عن سبب كل رحيل
وتبكي على كل الأشياء التي لم تكتب
وتضحك على كل الحكايات التي لم تولد
وتغني وحدها على شرفة الريح
وتعلمني أن الحرية ليست في الصمت
بل في أن نحتفظ بالضوء رغم العتمة
وأن نكون نحن
حتى لو كنا مجرد ظلٍّ على صخرةٍ نائية
حتى لو كنا مجرد وهمٍ يمشي بين الأمواج والغيوم
حتى لو كنا... نحن فقط.

حين تبكي الحروف

حينَ يتألَّمُ القلمُ ..
تنحني الحروفُ ..
كما تنحني أغصانُ شجرةٍ وحيدةٍ
تحت عاصفةٍ لم تترك في حقولِ الروح
إلا رمادَ الصمت
وأصداءَ وجعٍ يتردَّد في صدري
كوقعِ خطواتٍ مجهولةٍ
على درجٍ من غبار.

يا قلمي ...
لا تتركني وحيداً في معركةِ الحبر
تعالَ نمشِ معاً في أزقّة الكلام
نوقِظُ الكلماتَ التي نامت طويلاً
على وسائدِ الانتظار
كما يوقَظُ طفلٌ من حلمٍ مُرٍّ
ليكتشف أنَّ النهارَ
أرحمُ من المنام.

أراكَ اليومَ مائلاً
كريشةٍ تبحث عن ريحٍ تحملها
كجناحِ طائرٍ لم يكمِل رحلتَه
كظلٍّ نافذةٍ مطفأةٍ في بيتٍ مهجور.
أترى، يا صديقي
أنَّ الحبرَ قد كره الرحيل؟
أم أنَّ الحروفَ تعلَّمتْ سرَّ الحزن
فخبَّأته في جيوبِ الليل
كيلا يراه أحد؟

كنتَ ملجأي حين ضاقت بي الأرض
كنتَ ماءً في صحراء

وصوتاً يداوي جرحَ الروحِ بكلمة
ويحول غيمةً يتيمةً
إلى مطر.
لكنَّ الأيام قاسيةٌ
تسرقُ منك بريقَك
وتثقِلُ يدكَ بأحجارِ الذاكرة.
فلا تتهمني:
لستُ أنا مَن ألقاكَ في بحرِ العدم
أنا المسافرُ الذي أضاعَ خارطتَه
بين همساتِ الخوف
وصيحاتِ الأمل.

الحرفُ حينَ يبكي
يصبِحُ قصيدةً لا تسمعها الآذان
لكنها تعيشُ في الدمِ المتدفّق
في قلبٍ ينهارُ ثم ينهضُ
ليقول: ما زلتُ هنا.
وأحياناً يكونُ الصمتُ لغةً أصدقَ من الكلام
لغةً تنقذني من ازدحامِ الأصوات
وتعلمني أنَّ الركودَ
ما هو إلا انتظارُ انفجارٍ جديدٍ للحروف.

تذكر يا قلمي:
كم مرّةً جعلنا من الحزنِ وضوحاً
ومن الانكسارِ باباً
ومن الليلِ نجوماً مكتوبةً بالحبر.
فما هذا الثقلُ الذي يسكنكَ الآن؟
أهو موتٌ يعرفنا؟
أم لقاءٌ لم يتمّ؟
أم ذكرى تطوفُ كطوفانٍ
داخلَ عظامي؟

لا تخشَ البكاء
فكلُّ قلمٍ يبكي

وكلُّ حبرٍ ينهار
لكن في الانهيارِ تولدُ القصائد
وفي البكاءِ يشتعلُ المعنى
وفي النزفِ
تتكاثرُ المدنُ المخبّأةُ في الصدور.

سأقولها لك بصدق:
ما يسلبُكَ الأملَ هو خوفي أنا
خوفي من أن تكونَ الحكايةُ بلا خاتمة.
لكننا نعلمُ معاً
أنَّ النهايةَ ليستْ انتصاراً ولا هزيمة
إنما هي مجردُ نقطةٍ
في نصٍّ أبدي.

فلنحول النقطةَ بداية
والجرحَ جسراً
والصمتَ قصيدةً تدعى إلى الضياء.
لنكتبْ
لأنَّ الكتابةَ فعلُ بقاء
ولأنَّ الحروفَ — حتى وهي دامية —
تثبِتُ أننا مررنا هنا
أنَّ قلوبنا نبضت
وأنَّ أرواحنا لم تدفَن
مع الغبار.

هنا وطن لم يمت

من قلبِ الركامِ
من حنجرةِ الحجرِ المذبوحِ
من جوعِ الأطفالِ
ومن ليلٍ يتدحرجُ في عيونِ الأمهاتِ
يخرجُ وطني...
كطفلٍ بلا مِهدٍ
وكشهيدٍ بلا كفَنٍ
وكأرضٍ تفتشُ عن أبنائها في المقابرِ.

وطني ...
أيُّ صرخةٍ تَكِفُّك؟
أيُّ بحرٍ يحملُ دماءك؟
أيُّ سماءٍ تتسِعُ لروحِكِ المهاجرةِ؟

أمشي إليك
أحملُ في جيبي بعضَ رمادٍ
وفي صدري بقايا أغنيةٍ
أكتبُ اسمكِ على جدرانِ الغيابِ:
«هنا وطنٌ...
لم يمتْ،
بل تأخرَ قليلاً عن الحضورِ».

وطني ...
أيُّ موتٍ أعظمُ من موتِك؟
أيُّ خيانةٍ أشدُّ ألماً من خذلانِ أبنائك؟
نرفعُ راياتٍ لا تسترُ عارنا
ونكتبُ شعاراتٍ لا تطعِمُ جائعاً
ونحلمُ ببطولةٍ تتكسَّرُ في أولِ مواجهةٍ.

يا وطني ...
جوعي ليسَ جوعَ خبزٍ

وعطشي ليسَ عطشَ ماءٍ
إنما هو جوعُ الكرامةِ
وعطشُ العدلِ
وضياعُ اليقينِ.

أرى النساءَ في ليلِكِ
يخبِّئْنَ الدموعَ تحتَ عباءاتٍ سودٍ
يرقصْنَ على صمتِ الموتِ كي لا ينهارَ البيتُ
يمسَحنَ وجوهَ الأطفالِ
كأنَّ المسحَ يعيدُ أرواحَهم من غيابِهم.

وأرى الرجالَ، يا للحسرةِ
يمشونَ متثاقِلِينَ على أرصفةِ الذكرياتِ
يحملونَ البنادقَ المغطّاةَ بالصدأِ
والأحلامَ المتكسِّرةَ
كأنهم يختبئونَ من أنفسِهم في جيوبِ العارِ.

وطني ...
أنتَ القصيدةُ التي لا يجرؤُ شاعرٌ على ختمِها
أنتَ الجرحُ الذي لا يجِيدهِ طبيبٌ
أنتَ الطفولةُ التي كبُرتْ قبلَ أوانِها
أنتَ الفجرُ الذي ينامُ متأخّراً
ويستيقِظُ مذبوحاً على أبوابِ النهارِ.

لكنّي أقولُ لك:
لن يطولَ الليلُ
مهما طالَ الصمتُ والخذلانُ
لن تنكسرَ الجبالُ
حتى لو هدموا البيوتَ فوقَ قممِها.

أقولُ لك:
ستعودُ، كما تعودُ السنابلُ في الربيعِ
كما يعودُ البحرُ إلى مَوْجِهِ
كما تعودُ الرّوحُ إلى جسدِها بعدَ التيهِ.

أقولُ لك:
إنَّ موتك حياةٌ
ووجعَك صلاةٌ
وخرابَك بدايةُ خلقٍ جديدٍ.

وطني... يا مرآتي
يا دمَ قلبي
يا كلَّ ما تبقّى لي
سأكتبُك حتى آخرِ الحروفِ
وأهتفُ باسمِك حتى آخرِ الأنفاسِ
لأنَّك أكبرُ من الموتِ
وأبقى من الخذلانِ
وأجملُ من كلِّ القصائدِ.

دخول مفاجئ

تأتي الرياحُ كما نشتهي ...
لكننا لسنا مجردَ ملاحين
نحنُ الرياحُ التي تسرِّحُ خُصلاتِ البحر
ونحنُ البحرُ حين يتهجى أسماءهُ على الصخور
ونحنُ السّفنُ التي تتيهُ لتجدَ ذاتها في الضّياع.

كلُّ شيءٍ فينا يُبحر
أصواتنا أشرعةٌ من قماش الغياب
وخطواتنا مجاديفُ معلقةٌ بين سماءٍ لا تصغي
وأرضٍ ضاقت بما رحبت.

نفتحُ للريحِ نافذةً كي تكتبَ في دفاترنا
فتدخلُ كعاشقةٍ بلا موعد
تربكُ ترتيبَ الكلمات
وتتركُ على الطاولة كأساً فارغة
وبعضاً من ضوءٍ يتكسرُ في المرايا.

يا بحرُ ...
يا ذاكرةَ الملحِ التي لا تشيخ
نجيئُكَ غرباءَ في الصّباح
ونعودُ منك أنبياءَ غارقينَ في نبوءاتِ الموج.

أيعرفُ البحرُ أننا نخفي في جيوبنا
مفاتيحَ مدنٍ لن نعود إليها؟
أيعرفُ أنّ الريحَ ليست عابرة
بل مرآةٌ لصدورنا الممزَّقة؟

نحنُ الذين إذا كتبنا على الرملِ أسماءنا
محوها المدُّ كما لو أنا لم نكن
ونحنُ الذين إذا عبرنا الجسورَ
أشعلنا في الليلِ نجمةً كي تدلنا علينا.

أيها الغريبُ في داخلي
أيها الواقفُ على تخوم الصّمت
دعنا نُبحرُ مرةً بلا خوف
فالموجُ لا يخذلُ عاشقاً
يعرف أنه ماءٌ وماءٌ وماء.

نأتي كدخولٍ مفاجئ
كما تقتحمُ الفكرةُ قلبَ شاعر
كما تطلُّ يدُ الحنينِ من نافذةٍ مكسورة
كما يولدُ الصبحُ من عتمةٍ ..
لا تصدقُ أنّ الضوءَ ممكن.

نحنُ الذين نكتبُ بالرياحِ أناشيدنا
ونتركُ للبحرِ أن يكملَ السطر الأخير.
فإن ضاعَ منّا الطريق
فإنّ الطريقَ هو نحن
وإن غابت المرافئ
فإنّ المرفأ يسكنُ في أهدابنا.

صديقان على حافةِ العالمِ

نحنُ — اثنانِ ضوءٍ في جيبِ الليلِ
نمسكُ الزمنَ كما يمسكُ الفقيرُ قطعةَ خبزٍ.
أنتَ تعلمني أسماءَ الريحِ
وأعلمكَ أسماءَ الجوعِ والندى.

نمشي ليس لسفرٍ ولا لعودةٍ ...
بل لأن أقدامنا تزدادُ سؤالاً
تحملُ في كعبِها شُعَبَ الضوْءِ ...
وتتركُ وراءها ظلالاً كقصائدِنا.
في يديكَ خبزٌ، وفي يديَّ أغنيةٌ؛
نقسمهما كما تقسمُ القوافلُ ماءَ الواحةِ.

لم نَسْأَلِ الطريقَ عن اسمه؛
سألناهُ عن ساعةِ الميلادِ
التي تلدُ فينا وحشَ الحنينِ.
لم نَسْأَلِ الوطنَ إن كان لنا أو ضدنا
بل سألناهُ عن طعمِ الرغيفِ على لسانِ الصباحِ.

أحبُّكَ حُبَّ القوافلِ:
حبٌّ يذهبُ ويعودُ محمَّلاً بذُرّاتِ خبزٍ ...
وأسماءِ رجالٍ ماتوا وهم يحلمون.
أحبُّكَ كما يُحبُّ الفقيرُ رغيفَه
حبٌّ يعرفُ قيمةَ الشقّاتِ الصغيرةِ ...
والحمَمِ الهادئةِ تحتَ القدمِ.

نُغنّي لأنَّ الصمتَ عندنا لا يُثمِرُ خبزاً ولا ماءً
نُغنّي لنرى كيف يَنبتُ العشبُ بين مفاصِلِ الصخرِ
ولنرى كيف يُعيدُ البحرُ ..
قراءةَ أسماءِ الشهداءِ على شفتيهِ.

يا رفيقَ الدروبِ:

كم مرّةً صَرَخنا بلا صوتٍ؟
كم مرّةً غَسَلنا الليلَ
من قفازِنا لنقبلَ أرضاً لم تَعْرِفْنا؟
نحنُ مَن يُعلّمُ الشجرَ
كيف ينسى موسمهُ
ليُعطِي ثِمارَهُ للغريبِ.

أنتَ
— في داخلي —
خريطةُ مدينةٍ لا تَصلحُ للاستخدامِ
خريطةٌ مَطويةٌ على شكلِ خبزٍ ...
تُخفي داخلها وعيَ الهزيمةِ والأملِ معاً.
أنتَ — في داخلي — قصيدةٌ لم تكتبِ بعدُ
قصيدةٌ تحملُ رائحةَ المطرِ
والأجنحةِ وبردَ النوافذِ.

نحنُ كائنانِ نشربُ الوهمَ كأساً
نؤمنُ أنَّ الغدَ يملكُ مفاتيحَ البيوتِ المغلقةِ
نؤمنُ أنَّ كلَّ أغنيةٍ تروى تعيدُ لنا شيئاً من الوطنِ:
حافةَ بابٍ ...
دشّاً من ضوءٍ ...
رقعةَ أرضٍ لم نزرعها بعدُ.

كلُّ مساءٍ نعلّقُ على صدرِ السماءِ ملصقاً:
هنا عاشَ اثنانِ — جاءا قبلَ المطرِ وبعدَهُ —
خرجا من فمِ المدينةِ كقطعتَي خبزٍ ..
يسيرانِ بلا عذرٍ
يكسرانِ الصمتَ إلى نصفينِ
ويُسقِيانِ الأيامَ بالذكرى.

لا نبحثُ عن أغاني البكاءِ في دواوينَ قديمةٍ؛
نصنعُ أغانينا من بقايا الأيامِ:
شظايا ضوءٍ ..

خبزٌ باردٌ
ورقةُ شجرٍ تحملُ توقيعَ الغيابِ.
ونسألُ الحبَّ:
هل تبقى؟ فيجيبُ الحبُّ بغناءٍ لا نسمعهُ إلا نحنُ.

أحبُّكَ ...
— ليس حبّاً سهلاً —
بل حبّاً يقطفُ من الحجرِ وردةً
حبّاً يدرسُ الأسماءَ على صدرِ الزمنِ
ويعيدُ ترتيبَ النجومِ.
أحبُّكَ كما يحلمُ الليلُ بفجرٍ ولدَ من رحمِ الحريقِ.

نرسمُ مستقبلنا بملعقةِ عشبٍ
نخطُّ اسمَينا على جدرانِ الرملِ
وننتظرُ الريحَ لتقرأَهُ للبحرِ.
نزرعُ خبزاً في زوايا القلوبِ
لئلّا يبقَى أحدٌ جائعاً من الكلامِ
نقسِمُ الظلالَ كما يُقسَمُ الخبزُ في غرفةٍ صغيرةٍ.

يا صديقي:
تعالَ لنقفَ عند بابِ العالمِ الأخيرِ
حيثُ تُعانقُ الأمواجُ أقدامَنا ..
وحيثُ تعلّمنا الأرضُ كيف نخبّئُ الحنينَ في جيوبِنا.
سنمضي — لا للاختفاءِ — بل لنرى كم من أغانٍ ..
يَستطيعُ العشبُ أن يُخبئَها
وكم من خبزٍ يكفي لصلاةِ وداعٍ.

نحنُ رفيقانِ لأنَّ العالمَ لا يكفيهُ واحدٌ
نحنُ رفيقانِ لأنَّ الرغيفَ يحتاجُ إلى يدينِ تقسِمُه
نحنُ رفيقانِ لأنَّ الليلَ يقسو إن لم نغنِّ له لحننا.

أحبُّكَ: حبُّ قافلةٍ ...
حبُّ فتحِ بابٍ على شيءٍ لم يخترعْ بعدُ
حبٌّ يعلّمُ الخريطةَ أن تضحكَ في وجهِ الضياعِ.

أحبُّكَ كما تحبُّ الأرضُ المطرَ:
لا لتبتلَّ وحدها
بل لتطعمَ الزرعَ والذكرى.

وفي آخرِ الطريقِ — إن وُجدَ —
سنجلسُ على حصيرٍ لا يباعُ ولا يشترى
نقسمُ خبزاً صغيراً ...
وندفنُ بين ضحكاتِنا قليلاً من الحنينِ
ونخبِّئُ اسمَ المدينةِ في صدرِنا كما يخبأُ الحبُّ:
صغيراً، حَرجاً، لا يطلبُ إلا أن يكونَ.

هكذا — معكَ — يصبحُ العالمُ خبزاً وأغنيةً
حَبَّتانِ من هواءٍ ...
ثابتانِ في وجهِ العاصفةِ
نمضي معاً إلى الأبدِ — ليس لأنَّ النهايةَ معلومةٌ
بل لأنَّ خطواتنا اختارت أن تكونَ معاً.

وفي هامشِ القصيدةِ أكتبُ اسمكَ:
حرفٌ يشبهُ رغيفاً ...
وحرفٌ يشبهُ نجمةً
ولن أُخفي عنكَ الحقيقةَ:
أنتَ رفيقُ الخبزِ والأغنيةِ؛
أنتَ — دائماً — بيتٌ لا يسألُ عن عنوانِهِ.

وطنٌ يتدرّب على الغياب

لا نسمعُ غيرَ الوداع.
الوداعُ... كلمةٌ واحدة
لكنها تكفي لتكسرَ قلوباً كثيرة.

نمشي ...
ونسمعُ الرحيلَ يمشي معنا
بخطواتٍ باردة
ويعلقُ على أعناقنا بطاقاتٍ لا نريدها.

الرصاصةُ تكتبُ تاريخها على أجسادنا
والقبرُ يفتحُ فمَهُ
كأنه كتابٌ يبتلعُ الصفحةَ الأخيرة.

يا وطناً...
يا صورةً مفقودةً في المرآة
يا وطناً تبادلَ الملحُ فيهِ البارود
وصارَ الحبُّ جوازَ سفرٍ بلا وجهة
يا وطناً ضاعَ منهُ الفرحُ
وصارَ الفرحُ عملةً نادرةً في السوق.

نحنُ الذين لا نملكُ سوى الحنين
والحنينُ خبزُ الذاكرة
رائحةُ الأمهاتِ وهنّ يُعِدْنَ المائدةَ...
ولا أحدَ يعود.

أيها الوطن
أين خبأتَ أسماءنا؟
في جيوبِ الجنود؟
تحت وسادةِ البحر؟
أم تركتها للريحِ
لتوزعها على مفترقاتِ الغياب؟

نمشي على طرقٍ نعرفُ نهاياتِها
طرقٍ مسدودة
لكننا نكتبُ أسماءنا على الجدران
ونرسمُ فوق الركامِ وجوهاً لا تمحى.

لا نطلبُ معجزة
نطلبُ فقط:
قهوةً لا تخافُ ارتجافَ الأبواب
ضوءاً صغيراً يجرحُ ظلمةَ الغرف
وفجراً يدخلُ بلا إذنٍ عسكري.

هنا أمهاتٌ ينتظرن
أطفالٌ يحفظون أسماءهم
كي لا تسرقهم الفصول
رجالٌ يفتّشونَ عن رصيفٍ يقودُ إلى بيت
ونساءٌ يعلّقنَ المطرَ على النوافذ
علّ الغائبَ يرى الطريق.

الوطنُ ضائع؟
نعم
لكنَّ الحجارةَ تحفظُ أقدامنا
والأشجارُ تحفظُ أسماءَنا
والريحُ تحفظُ أصواتنا
وتسلمُ عليها كلَّ ليلةٍ
كأنها تحصي الغائبين.

نحنُ الذين صنعنا من الحزنِ خشباً
ومن الخشَبِ سفينة
ومن السفينةِ بحراً يليقُ بالعودة.
نحنُ الذين خبأنا تحت وسائدنا
قصائدَ لم تقرأ بعد.

أيها الوطن:
أراكَ في غيابِكَ...

قنديلاً مكسوراً
تسطعُ حيناً
وتخفتُ حيناً
لكننا نعلمُ أن النورَ لا يموت
إنما يبدلُ شكلهُ ليعلّمنا الصبر.

لا نسمعُ غيرَ الوداع
لكننا نعيدُ كتابتهُ من جديد:
لا وداع
ما دام القلبُ يتّسعُ للحب.
لا نهاية
ما دامَ الحنينُ يفتحُ درباً
والدربُ يفتَحُ باباً
والوطنُ... مهما ضاع
يعود.

كلمات من بحر الأيام

نحن الذين خرجنا من صمتِ الحجارة
وحملنا على ظهورنا شمساً تتفتّت كلَّ صباح
لم نطلب من الريح أن تهدينا طريقاً
ولا من الغيم أن يسكب ماءه على جفاف قلوبنا.

اعتدنا أن نكون الجُرح والمداوي
أن نجلس على حافة الليل
ونغزل من وحدتنا وشاحاً
يكفي لستر وجوهنا عن غربة المدن.

لم نُلقِ أحمالنا على أحد
كأننا جبلٌ يعرف أن لا سند له
إلا جذوره الغائرة في صمت الأرض.
لم نمدّ كفّاً إلى السماء انتظاراً
كنّا نحن الكفَّ
ونحن الغيمَ
ونحن المطرَ إذا عطشنا.

في بحر الأيام كنّا مراكب بلا ميناء
لا رُبّان يرسم لنا درباً
ولا خارطة تعلّمنا أين ينتهي التيه.
كنّا الموجةَ إذا غضبت
وكنّا الصخرةَ إذا اصطدمت بها الموجة
وكانت دموعنا ملحاً
يزيد البحرَ زرقةً واتساعاً.

لم نطلب كتفاً نُسند إليه انكسارنا
كنّا نحن الكتفَ
والأكتافُ التي احتمت بنا ..
كانت الريحَ الهاربة من صليل السيوف.
لم نطلب يداً تمسح على رؤوسنا

فمسحنا بأيدينا غبار الطريق
عن جباهٍ أنهكها السفر الطويل.

نحن الذين حملنا وحدتَنا كراية
ورسمنا على وجوهنا ابتسامةً
تشبه انتصاراً صغيراً على موتٍ مؤجَّل.
نحن الذين إذا تكسّر الحُلم
جمعنا شظاياه كنجومٍ ضائعة
وأعدنا صياغته في قصيدة
أو في ذاكرة طفلٍ يبتسم عند الفجر.

في بحر الأيام أتقنّا العومَ ضد التيار
وعرفنا أن الغرق هو أن تنتظر يداً لا تأتي
وأن النجاة هي أن نكون نحن اليدَ
ونحن السندَ
ونحن الطريقَ المعبّد بالصبر.

يا أيها العابرون فوق أوجاعنا
لا تسألونا كيف صمدنا
فنحن أبناءُ الريح التي لم تجد مأوى
وأبناءُ الصمت الذي يعلّم القلبَ لغةً
أعمق من كل الحروف.
نحن الذين نكبر في العزلة
كما تكبر شجرةٌ برية
بين صخورٍ لا تعرف العطاء.

لم نكن بحاجةٍ إلى أنصاف مواساة
ولا إلى كلماتٍ تُشبه ماءً عكراً في عطشٍ شديد
كنّا بحاجةٍ إلى أنفسنا فقط
وإلى تلك النار التي تشتعل في قلوبنا
حين يطعننا الغياب.

نحن الذين صنعنا من الخيبة زاداً
ومن الغياب حضوراً

ومن الانكسار موسيقى
تعلّم الطيورَ كيف تغني في الصباح.
نحن الذين لم نتكئ على أحد
لكنّنا كنّا للجميع سنداً
وكنّا لأنفسنا الاكتفاء.

مِمّا نَخْشى؟

مِمّا نَخْشى؟
نَخْشى وجوهاً تصفقُ للذبحِ
سيوفاً تلمعُ بأحلامِ الأطفالِ
أقداماً تدوسُ خبزَ الفقراءِ
كَأنها تدوسُ الظّلالَ.

نَخْشى وطناً صارَ خريطةً في يدِ الغُزاةِ
راياتٍ ترفعُ باسمِ اللهِ
وتسقطُ اسمَ اللهِ في خنادقِ النِّفطِ والدمِ.
نَخْشى ذاكرةً تباعُ في المزادِ
وتاريخاً يكتبهُ السّجانُ
بِمِدادِ السجونِ.

مِمّا نَخْشى؟
نَخْشى القتيلَ إذا نطقَ
والشهيدَ إذا سُئِلَ عن وصيَّتِهِ
امرأةً تفتشُ في رمادِ الليلِ
عن طفلٍ لم يعدْ.
نَخْشى البحرَ
حينَ يتحولُ نعشاً للغرباءِ
والبَرَّ ..
حينَ يبتلعُ العائدينَ كأنهم لم يولدوا قطُّ.

نَخْشى الكلمةَ
حين تكسرُ بينَ أسنانِ الرِّقابةِ
والقصيدةَ إذا صارتْ منشوراً يتيمَاً
على جدارٍ مهدومٍ.
نَخْشى الطفولةَ إذا رسمتْ بالطبشورِ
على رصيفٍ تبللهُ دماءُ الشهداءِ.

مِمّا نَخْشى؟

نَخْشى العدوَّ إذا تقنعَ بوجهِ الصديقِ
والصديقَ إذا صارَ خادماً للعدوِّ.
نَخْشى أسئلةً تضيعُ الطريقَ
وإجاباتٍ جاهزةٍ كالأصفادِ.
نَخْشى لغةً تفقدُ مِلْحَها
وقلوباً تتعلمُ الصمتَ
كأن الصمتَ صلاةٌ.

نَخْشى الليلَ الطويلَ
حينَ يغدو وطناً آخرَ
والنهارَ القصيرَ
حين يسرِقُ أشجارنا ليزرعها
في حدائقِ الغرباءِ.
نَخْشى الريحَ
إذا حملتْ رائحةَ الخيانةِ
والمطرَ
إذا غَسَلَ آثارَ الدمِ ولم يَغسِلِ العارَ.

مِمّا نَخْشى؟
نَخْشى القادةَ إن ابتلعوا الشعبَ
وألقَوهُ عظماً إلى الذئابِ
والشوارعَ إن ضاقتْ بالهتافِ
والبيوتَ إن امتلأتْ يَتَماً
والنوافذَ إن صارتْ عيوناً مُحْرَسَةً.
نَخْشى الأملَ
إذا صارَ وعداً انتخابيّاً
والثورةَ
إذا تحولتْ إلى أرشيفٍ على الرفوفِ.

لكنَّنا
لا نَخْشى الحلمَ
ولا قلوباً تعرفُ أنّ الشمسَ تولدُ من الرَّمادِ
ولا أصواتاً تعلِنُ:

«الحرّيّةُ لا تعطى،
الحريةُ تنتزعُ كما ينتزَعُ القَمحُ
من قلبِ الصَّخرِ».

فمِا نَخْشى؟
نَخْشى أنْ نخافَ أكثرَ ممّا ينبغِي
ونحنُ الذين تعودنا أن نولدَ
كلّ يومٍ من تحتِ الرُّكامِ
أن نكتبَ على الأبوابِ المغلقةِ:
«سنَفْتَحُها بالدمِ،
أو نَفْتَحُها بالشمسِ،
أو نكسِرُها بالقصيدةِ».

حين يجرحنا الحاضر

أصبحنا نبكي ...
لا لأنَّ الماضي كان جميلاً كما يظنُّ العابرون
بل لأنَّ الحاضرَ غرزَ سكاكينهُ في قلوبنا
حتى صرنا نخافُ من مرآتنا
ومن أصواتنا ...
حين ترتدُّ إلينا كصدىً بلا رجعة.

الماضي؟
لم يكن سوى غرفةٍ صغيرةٍ في بيتٍ كبير
حائطٌ تقشر طلاءُه
وكرسيٌّ مكسورُ الساق
لكنهُ كان يحتضننا كما تحتضنُ الأمُّ طفلها
وتخبّئهُ في صدرها كي لا يبرد.

أمّا الحاضر ...
فهو ساحةُ حربٍ بلا أعداء
ومدنٌ تتآكلُ من الداخل
وأحلامٌ تتساقطُ كأوراقٍ يابسة
في خريفٍ لم نعرف له بدايةً ولا نهاية.

نُداري دموعنا عن الأطفال
لكنهم يقرأون الحزنَ في أعيننا
كما تُقرأ الخرائطُ في كتب المدارس
ويعرفون أنّ الفرحَ صار مهاجراً
يبحثُ عن جواز سفرٍ لا يُمنحُ لنا.

لم يكن الماضي جميلاً ...
لكنهُ كان يتركُ لنا فسحةً للضحك
وكان يفتحُ نافذةً صغيرةً للهواء
فنستطيع أن نتنفّسَ
ولو مرةً في اليوم

ونحلمَ بليلٍ أقلَّ سواداً.

أمّا الآن ...
فالليلُ جدارٌ أسودُ بلا ثقوب
والنهارُ يجيءُ مثقلاً بالظلال
كأنَّ الشمسَ غادرتنا
وأرسلتْ إلينا بدلاً منها قنديلَ غربة.

نحن الذين أضعنا أسماءَنا
في زحامِ النسيان
فلم نعد نعرفُ: هل نحن أبناءُ الأمس
أم أسرى الغد
أم أننا معلقون في حبالِ الوقت
كعصافيرَ تُجرَّبُ عليها الرياح.

نبكي...
لا لأنَّ الماضي كان فردوساً
بل لأننا كبرنا في حضنِ جراحٍ مفتوحة
وعرفنا أنَّ القلبَ حين ينكسر
لا يُرمَّمُ بالقصائد
بل بمساحةٍ صغيرةٍ من الأمل
والأملُ صار بعيداً
كشمسٍ تلوّحُ من وراء البحر.

أيها الحاضرُ ...
يا وجهَ الغريب الذي يسكنُ بيوتنا
أعِدْ إلينا شيئاً منّا
شيئاً صغيراً...
ضحكةَ طفلٍ
أو صوتَ غيمة
أو حتى ظلَّ طائرٍ مهاجرٍ
يعودُ في موسمه
ولا يخذلُنا.

لكنكَ لا تعود ...
فتتركنا نبكي حين نتذكر
لا لأنَّ الماضي جميل
بل لأنكَ يا حاضرُ...
أوجعتَ قلوبنا بما يفوقُ الاحتمال.

أنا والليل وحكاية طويلة

أنا والليلُ... وحكايةٌ طويلةٌ
تتمدّدُ على وسائدِ الغياب
كأنها مخطوطةُ زمنٍ مبلَّلٍ بالدمع.
أقرأُ بين أهدابِ الظلامِ وجهي
وألمسُ في مرايا الريحِ ندوبَ أيامي.

يا لليلِ...
ما أوسعَ صدركَ حين يضيقُ الكون
وما أضيقَ صمتَكَ حينَ أصرخُ فيكَ فلا تُجيب.
كتبتُ همومي على سبّورةِ الغيم
لكن المطرَ لم يفهم لغتي
ظلَّ ينهمرُ كما لو أنه يغسلُ اسمي عن الأرض.

شربتُ من كؤوسِ الوجعِ حتى ترنّحتْ أفكاري
ورقصتُ فوق صدرِ الغيوم
كأني طائرٌ تاهتْ أجنحتهُ
يبحثُ عن عشٍّ في مقبرةِ السماء.

أيا ليلُ... يا خمري... يا كأسَ أوجاعي
كم مرّةً جئتُكَ عارياً من الكلام
محمولاً على أكتافِ الذكريات
وملتحفاً برمادِ الأحلام؟

أنا الذي خبّأتُ قلبي في حقيبةٍ من خوفٍ
ونسيتُ مفتاحه في يدِ الغياب.
أنا الذي غفوتُ على ركبةِ الصمت
فأيقظتني أصابعُ الحنين.

كلما اقتربتُ منك، يا ليلُ ...
صرتَ أبعدَ من سرابٍ في صحراءٍ بلا قافلة.
وكلما همستُ في أُذنك

ارتدَّ صداي إليَّ كجدارٍ أعمى.

أيتها النجومُ المعلقةُ كالمصابيحِ في سقفِ الغربة
هل تسمعينَ؟
أنا لستُ سوى عاشقٍ يطاردُ ظلَّهُ
ويفتّشُ عن وجههِ في مرآةٍ مكسورة.

يا ليلُ...
أعلّقُ على كتفِكَ خيبتي
وأمشي معكَ بلا خريطةٍ...
بلا دليلٍ
كأنّي سفينةٌ تُبحرُ في محيطٍ من رماد.

علّمتَني أنَّ الحزنَ غناء
وأنّ الوحدةَ وطنٌ آخر
وأنّ القلبَ الذي يكثرُ نزيفُه
يصبحُ أكثرَ قدرةً على رسمِ القصائد.

فخذني ..
يا ليلُ ..
إلى حيثُ لا أعرفُني
إلى حافةٍ تسقطُ فيها الذكريات
وتنبتُ في مكانها شجرةُ صمتٍ
أعلقُ عليها وجهي ..
وأنتظرُ فجراً
لا يجيء.

حين يبكي الحاضر على ماضيه

وحدي أنا ..
بين الوجود والغياب ..
كأني ظلٌّ تائهٌ على رصيف الليل
أحمل وجهي في جيبٍ صغيرٍ من النسيان
وأخبّئ صوتك في طيّات حلمٍ مخمليّ
كسِرٍّ غامضٍ عن العيون
كما تخفى الوجوهُ خلف الأقنعة
خشيةَ البوح بملامحها.

كلما مددتُ يدي نحو المعاني التي تركتها لي
تتملكني رعشةٌ
كأني ألمسُ وهجَ الغياب
أصطدمُ بروحك في كل جملة
وأتعثرُ بصوتك
الساكن زوايا حياتي
كظلٍّ لا يغادرني.

أحمل أوقاتنا المشتركة
كأثقالٍ لا تفارقني
وأستعيد مساءاتنا الباكية
في وحدتي
بمفاتيح غيابك
أفتح أبواب الليل
وأفضحنا بين السطور
ثم أحتار:
ماذا أكتب؟ ولمن أكتب؟
ما دامت قصتنا ناضجةً بالألم
محمّلةً بما لا يُحتمل؟

أستند إلى نصوصٍ وحروفٍ وحيدةٍ مثلي
تعاني من صقيع الوحدة

ولا أبوح لك أنني في خصامٍ
مع كلّ وقتٍ يبعدني عنك
وأنّ الحياة تصبح جوفاء من دونك
كصدفةٍ بلا بحر.

لن يخبرك أحدٌ كم أشتاق إليك
ولا أنني تركتُ نفسي هناك معك
ولا أنّ وجهي في النصوص صار هزيلاً
وعطرك انكسر في داخلي
كما ينكسر قارورة كاملة.

لن تستيقظ أمي من قبرها
لتقول لك:
«ضاع ابني بيني وبينك،
وبين عطرك الذي شطر قلبه نصفين.»
فأنا الذي أعرفني:
لن أستغيث بالله لأنجيني
بل سأصدرُ حكماً على نفسي
باثنتين وسبعين جلدة
عن كلّ يومٍ يبعدني عنك.

وبدم قلبي أدون هلوساتي في المتن
وفي الليالي أعقد صفقةً مع القناني
وأتجرع كؤوس القصائد
علّها تُسكِن هذياني.

خشيتُ أن أقول لك:
وحدي معك أمرّر يدي على اللحظات
وأنتظرُ الأيام لتحملني إليك.
أعلم من شغف يدي
كم هي توّاقةٌ لملامستك
وأعلم أنني أجدك بين السطر والسطر
أعانقك

كأنّ الكلمات أوطانٌ صغيرةٌ تحتوينا.

أرتب سريراً ليكون وطناً
من استعارات الغيوم
وفي ليالي الغياب نمضي بالخيال
بين حكاياتٍ ناقصة
وكؤوسٍ من الخيبة
كعنوان قصيدةٍ مشظاةٍ بالرغبات.

لا وقتَ يعرفني ..
ولا وقتَ يكفيني لأرتدي خذلاني
وأخرج للبحث عنك.
أحتاج أن أنجو من نفسي
أن أشيخ كورقةٍ في مهب الخريف
أن أتعلم كيف أخسر اللقاء بك
أخسر نفسي
أخسرك
أخسر عينيك
وأغدو غريباً حتى عن ملامحي.

لستُ أنا في مثواي الأخير
ما زلتُ أتأرجح بين الوجود والغياب
أبكي على كلّ جنازةٍ أشيّعها بين السطور.
بقليلٍ من الصبر أعود لشحن نفسي بالبكاء
كأنّ البكاء هو الوقود الوحيد لاستمرار الحياة.

أنا مظروفٌ لطلقةٍ فارغة
وبقايا حائطٍ متهدّم
هذا أنا.
أنتظر صباح قدومك
منذ أن أطلق الموتُ صرخته الأولى في وجهي.
أنتظرُ ...
لأرفعَ نخباً من كؤوس الأمل على عتبة الشمس

ولتبدأ عيناي في ملاحقة
خيوط الدخان المتصاعدة من سجائري.

وحدي أنا...
بين الحياة التي تفرُّ منّي
والموت الذي يلوّح من بعيد
أظلُّ متشبثاً بانتظارك
كأنّ الانتظارَ أوّل الخلق وآخره.

حين يغدو الوطن منفًى

هَوِّن عليكَ ..
فالوطنُ قد غدا منفًى
شوارعهُ لم تعد تسعُ الذكريات
وأزقتهُ صارتْ غريبةً
كأسماءٍ تمحى من ذاكرةِ الأطفال.
والمآذنُ التي كانتْ تنادينا
صارتْ تصدحُ لصلاةٍ بلا مؤمنين
كأنَّ الريحَ تصلي وحدها.

لم يعد الوطنُ بيتاً
بل سقفاً مثقوباً تتسربُ منه العواصف
ولم يعد وطناً
بل غيمةً يتيمةً
تبعثرها الحروبُ إلى خرائط ممزَّقة
ولا ظلَّ فيه إلا ظلُّ المدافع.

اجمعْ ما تبقى لكَ من حنين
فالأعاصيرُ التهمتْ مواويلَ الأمهات
والأرضُ التي كانتْ تنبتُ قمحاً
صارتْ تنبتُ أسماءَ القتلى
على شواهدَ رطبةٍ من الغبار
غدا الحجرُ أبلغَ صمتاً من أهله
وأكثرَ غربةً من نوافذٍ بلا ستائر
وأشدَّ وحدةً من موتى بلا كفن.

الوطنُ أعرى من أحلامه
كأنهُ استحمَّ بماءِ الموتى
كأنّ النهرَ غسلهُ بدموعٍ لا تجفّ
وأعادهُ إلى الترابِ خالياً من النبض.

أحلامٌ مؤجّلة ...

تواريخُ مؤقتة
وأفراحٌ مصطنعةٌ
كابتسامةِ قاتلٍ يخبّئُ سكينهُ وراءَ ظهره.
فأيُّ عيدٍ يقامُ على أنقاضِ البيوت؟
وأيُّ نشيدٍ يغنى فوقَ فمٍ مقطوع؟

عيشي منفاكِ بكلِّ إخلاص
فالمنافي . رغم قسوتها .
أصدقُ من وطنٍ يبيعُ أبناءهُ
في مزادِ السياسة.
بوحي للبحر ..
فهو وحدهُ يعرفُ معنى البكاء
بوحي للنهر ..
فهو ما زالَ يجري رغمَ السدود
بوحي للصمت ..
فهو أعدلُ من صراخِ الخطب
لكن لا تبوحي للوطن...
فقد خانَ نفسهُ قبل أن يخوننا.

ذلك الوطنُ ..
الذي يبيعُ خبزَ فقرائِهِ ليشتري بنادق
الوطنُ الذي يعلّقُ على جدرانِه ..
صورَ الملوكِ والجنرالات
ولا يعلقُ صورَ اليتامى.
الوطنُ الذي يصفّقُ للمشانق
ويزغردُ للدماء
ذلك الذي لم يعد وطناً
بل قفصاً تربّى فيه الطيورُ على النسيان.

ومع ذلك ...
نحنُ الذين نشبهُ الحطبَ اليابس
نضيءُ بلهيبِ احتراقنا
نحنُ الذين لا نملكُ غيرَ الكلمات

نكتبُ على جدرانِ الليل:
لن يكونَ المنفى قدَرَنا الأخير
ولن يكونَ الوطنُ مجرّدَ ذكرى
مُعلّقةٍ على حيطانِ المنسيّين.

سيأتي زمنٌ ...
تعودُ فيه الشوارعُ لتسعَ خطانا
وتعودُ الحجارةُ لتتكلم
وتغسلُ الأمطارُ وجوهَ الأمهات
ويعودُ الوطنُ وطناً
لا منفى.

نهرُ الكلمات

يا نهرَ الكلماتِ ..
أيَّ سرٍّ تُخفينَهُ الضفافُ إذا اقتربتُ؟
أيَّ حنينٍ يسيلُ في عروقِكِ
كأنهُ دمُ العاشقين؟
أمدُّ يدي إليكِ
فتتفجَّرُ الحروفُ كالعصافيرِ من أعشاشِها
وتحلّقُ في فضاءِ الورقِ
كما لو أنها تفتَّحتْ في قلبِ الرَّبيعِ.

أنا الرجلُ الذي سكنَ أحلامهُ فيكِ
زرعتُ في صدرِكِ قمحَ الضَّوءِ
وأرسلتُ قوافلي نحوكِ
كي تعلّميني كيفَ يشربُ الجرحُ من غيمةٍ
ويغفو على كتفِ القصيدةِ.

كلما همستُ باسمِكِ
انشقَّتْ من حولي المجرَّاتُ
وانسكبَ الليلُ
كقنديلٍ يهوي من يدِ ملاكٍ
وكلما كتبتُ عنكِ
ارتعشتِ الأرضُ تحتَ قدمي
كأنها تُنصتُ لصوتي
وترقصُ من خفقةِ الحبرِ.

أيا نهرَ الكلماتِ ...
أنتِ سيفي إذا خانني الزَّمانُ
وأنتِ فراشتي إذا غابَ الرَّبيعُ
وأنتِ أنشودتي إذا صمتَ العالمُ
وتركتِني أعدُّ دموعي
كما يعدُّ الغريبُ خطواتَهُ على رصيفٍ موحشٍ.

أكتبُكِ
كي لا تموتَ أزهارُ الذاكرةِ
كي يبقى للغربةِ نافذةٌ
يطلُّ منها وجهُ أمي
كي يظلَّ للعاشقينَ وطنٌ
من رائحةِ القهوةِ ودفءِ الأيادي
كي لا يبتلعنا التيهُ
ونحنُ نبحثُ عن بيتٍ
في خرائطِ الغيابِ.

يا نهرَ الكلماتِ ...
أنتِ عمري الآخرُ
أنتِ ما خبَّأهُ اللهُ في صدري من موسيقى
أنتِ انكسارُ الموجِ على صخرةِ اليقينِ
أنتِ أبدُ الحنينِ
الذي يكتبُني وينقذُني
كلّما هممتُ أن أغيبَ.

فاجعلني شجرةً على ضفافِكِ
كي أغسلَ حزني بمائِكِ
واجعلني قمراً في عتمتِكِ
كي أنيرَ لعابري الطرُقِ دروبَهم
واجعلني رجلاً في قصيدتِكِ
كي أكونَ الخاتمةَ
والمبتدأَ
والحُلمَ الذي لا ينطفئُ.

أغار من قلبي

إذا طاف قلبي حولها ..
جُنَّ شوقه ..
وصار الليل أهدأ من دموعه
وصار البحر يُنصت لأسراره
كما لو أن الريح ...
لا تريد أن تعصف إلا بخطاه
وصارت النجوم ترتعش في السماء
كأنها تخشى أن تفقد أثر خطواته
وكأن القمر يختبئ خلف غيماته ...
ليسترق النظر إليها.

أغار من قلبي حين يذكرها
حين يهمس باسمها للهواء
حين يرسم وجهها على جدار الظلال
حين يحرق نفسه في نار الحب
ويضحك في الوقت ذاته
كما لو أن العالم كله لا يسعه إلا ابتسامتها
وكأن السماء أهدتني ...
إيّاها لتملأ الفراغ الأبدي في روحي.

أراها في كل مكان:
في ضوء الفجر ..
حين تتفتح الأزهار
وفي المطر ..
حين يبتل الطريق كما تبكي السماء
وفي الصمت ..
حين لا يسمعني أحد سوى صدى قلبي
وفي الريح ..
حين تجرّده من كل شيء إلا رائحة وجودها
وفي الغروب ..

حين تتحول الشمس إلى نارٍ خامدة
أراها كما لو كانت شعلة تحترق ..
بصمت على حافة العالم.

لو كان الليل يكتب ..
لكتب عنها قصيدة بلا نهاية
ولو كانت الأرض تنطق ..
لحدثت عن ضحكتها
ولو كان البحر يعرف لغة الحنين ..
لاحتضن كل موجة باسمها
ولو كانت النجوم تمشي على الأرض ..
لخطت طريقها إليها
ولو كان للصمت صوتٌ ..
لصرخ باسمها بلا توقف
حتى تصبح كل لحظة في هذا الكون ..
قصيدة عشق لا تنتهي.

أغار من قلبي لأنه يعرفها أكثر مني
لأنه يعيش معها لحظاته التي لا تُقاس بالزمن
لأنه يعرف كيف
يحبّ العالم بطريقة لا يعرفها البشر
كيف تُصنع السعادة من نظرة واحدة
وكيف يُصنع الحزن من غياب ثانية
وكيف يمكن للصمت
أن يكون أقوى من ألف صرخة
وكيف للروح أن تذوب في لحظة واحدة
كما يذوب البحر في حضن الصخرة.

أغار من قلبي حين يذوب في اسمها
حين يكتب على جدران روحي: «لقد أحببت»
حين يسافر بلا جواز ..
بلا عودة ..
بلا خريطة

إلى عينيها ..
حيث يصبح كل شيء صريحاً وواضحاً
حيث يصبح الحب صاعقة
وحيث يصبح الألم أغنية
وحيث يصبح الغياب قصيدة تُحكى للنجوم
وحيث يصبح الليل كله حارساً لأسرارها
وحيث يصبح النهار قطعة من صمتها الطويل.

أغار من قلبي ...
لكنه علّمني كيف أحب بلا حدود
كيف أكون الشجرة التي تحنو على الطيور
والطير الذي يهوى السماء
والنهر الذي ينساب بلا توقف
والقمر الذي يراقب الليل في صمت
والغيم الذي يحتضن المطر ..
قبل أن يسقط على الأرض
والرمل الذي يحتفظ بآثار خطواتها في سرّه الأبدي.

أغار من قلبي ..
لكنه علّمني أن أكون كل شيء
أني أستطيع أن أكتب باسمها على كل شيء:
على البحر ..
على الصحراء ..
على الريح ..
على السماء
أن أزرع شوقها في كل زاوية من روحي
أن أترك لها مكاناً حتى في صمتي
أن أحبها كما يحب البحر أمواجه
كما يحب الليل نجومه ..
كما يحب القلب نفسه
وكما يحب الزهر الشمس حين تتفتح كل صباح
وكما يحب المطر الأرض حين تنبعث الحياة منها.

وأغار من قلبي حين يضيع في تفاصيلها
حين يرى في ضحكتها عالماً بلا جدران
حين يسمع في صمتها موسيقىً
لم يخلقها الإنسان
حين يعرف أن قلبها أوسع من كل الحكايات
وأن عينيها تملك قدرة ..
على جعل الكون أضيق من لحظة حبها
وأن وجودها ..
يشعل كل الأماكن التي يمر بها الضوء.

أغار من قلبي ..
لكنه علّمني أن أكتب بلا توقف
أن أصنع من الشوق ..
نهراً يتدفق بلا نهاية
أن أصنع من الغياب ..
قصيدة لا تعرف الرحيل
أن أصنع من الحب ..
وطناً لا يُسأل عن حدوده
وأن أصنع من كل ثانية اسمها
وحين أغمض عيني ..
أرى وجهها يبتسم لي في كل شيء
كما لو أن الكون كله يهمس:
«لقد أحببت».

نشوة الانتظار

أيا حبّي الغائبَ خلفَ السَّماء
يا من تتخفينَ في الغيمِ كأغنيةٍ لم تكتمل
أراكِ في نشوةِ العمرِ حينَ تفتّحَ وردُه
وفي لوعةِ الأشواقِ التي تشظّي صدري
كزجاجٍ يتفتّتُ في العاصفة.

عشقتُكِ كما يعشقُ المطرُ عطشَ الأرض
كما يعشقُ الليلُ وجهَ القمر
كما يعشقُ البحرُ صرخةَ موجتِه
حينَ تتهجّى على صخورِ الحنين.

يا غائبةً تسكنينَ في نبضي
أشعلتِ في صدري أعاصيرَ الهوى
وجعلتِ شراييني ناياً حزيناً
ينزفُ موسيقى العذابِ والفرحِ معاً.

مَن علّمني أنَّ الأحلامَ
يمكنُ أن تصيرَ جسراً بين قلبين؟
مَن لقّنني أغاني البلابل
على أغصانِ الذاكرة؟
أنتِ وحدَكِ
أنتِ التي كتبتِني مرّةً أخرى
على أوراقِ الغياب.

يا كتابَ الحبِّ الناطقَ بلهيبِ الحنين
يا جُرحاً يتوهّجُ في صمتِ الجفون
يا مسكاً وعنبراً يتسرّبُ من عَرقِ الروح
كيف استطعتِ أن تجعلي الليلَ ضوءاً
والعتمةَ قُبلةً على جبينِ الانتظار؟

فيكِ عشقتُ الوجدَ
وعشقتُ سَناكِ الذي ذابَ بين أضلعي

كشمسٍ تذوبُ في البحرِ ساعةَ الغروب
فتسافرُ معها ألواني وأحلامي.

أيا غائبةً تسكبينَ حضوركِ في غيابِكِ
قولي لي: من حرمني العشقَ وأسرارَه؟
من أطفأ قمري حينَ كنتِ نوري؟
من أشعلَ قلبي ناراً
في زمنِ الغيمِ والبرودة؟

يا ساكنةً في الدمعِ
وفي جرحٍ دامٍ لا يندمل
تعالَي، فكلُّ فصولي صارت شتاء
وكلُّ أغنياتي صارت عاصفة
وأنا ما زلتُ أفتّش عنكِ
بين تقاسيمِ وجهِ القمر
بين نوارسِ البحرِ
بين حدائقِ الغياب.

تعالَي، فأنا لم أعشْ إلا بكِ
ولم أعشقْ إلّا وهجَكِ
ولم أكتبْ إلا بحبرِكِ
ولم أنمْ إلّا على وسادةٍ
تخبّئُ رائحةَ حضورِكِ.

يا حبّي الغائبَ بعيداً
كلُّ شيءٍ يناديني إليكِ
حتى الصمتُ صارَ صوتكِ
وحتى الريحُ تحملُ اسمَكِ
إلى حيثُ يذوبُ قلبي
في نشوةِ الانتظار.

حين تُذبحُ قصيدتي

حين تُذبحُ قصيدتي
تصرخُ حنجرةُ الألمِ في صدري
كأنها صرخةُ أرضٍ مثخنةٍ بالدموع
كأنها جرحُ التاريخِ
حين يفتحُ دفاترهُ على مقاصلِ الطغاة.

قصيدتي ليست صوتي وحدي
إنها حنجرةُ وطنٍ كامل
تصرخُ بلسانِ القرى المحروقة
وبأسماءِ المدنِ المصلوبةِ على أعمدةِ النسيان
وتنطقُ بلسانِ الأطفالِ
الذين لم يولدوا بعد
خشيةَ أن يجدوا أنفسهم في ليلٍ بلا قمر.

حين تُذبحُ قصيدتي
تصمتُ الدنيا وتعلو صرختها
فتسأل:
أيُّها المتخمونَ بالذهبِ والنفطِ والكراسي
هل رأيتم كيف يبتلعُ البحرُ أحلامَ الغرقى؟
هل سمعتم أنينَ الحجرِ
حين يسقطُ على جسدِ شهيد؟
هل ذقتم يوماً طَعمَ الخبزِ الممزوجِ بالدمع؟

قصيدتي وطنٌ يرفضُ أن يُباعَ في المزادات
وزمنٌ يأبى أن يُمحى من ذاكرةِ الأرض.
هي قافلةُ لاجئينَ تمشي حفاةً
على دروبٍ ملأى بالأشواك
لكنها تحملُ في حقائبها
بذورَ الحلم
وأسماءَ الذين سقطوا كي تبقى الأغنية.

حين تُذبحُ قصيدتي
أراها ترفعُ علَماً أخضرَ من رماد
علَماً لم يُبدَّلْ بألوانِ الغبار
فتغرسُ في العيونِ رايةً أخرى
من دماءِ الشهداء
ومن صبرِ الأمهات
ومن صمتِ القبورِ التي لم تنم.

قصيدتي ليست خُطبةً
ولا بياناً سياسياً
ولا هتافاً في ساحةٍ عابرة.
إنها دمعةُ شاعرٍ يكتبُ على جدارِ الليل
ويُدرك أنَّ الكلمةَ أقوى من الرصاصة
وأبقى من العروش
وأجملُ من فجرٍ يتسلّلُ
من بين شقوقِ الحديد.

حين تُذبحُ قصيدتي
تصيحُ:
أيُّها الوطنُ المسروقُ من أيدينا
لن تسرقوا نبضَ قلوبنا
لن تسرقوا قمحَنا ولا أغانيَنا.
فالأرضُ تعرفُ أبناءَها
والنهرُ يعرفُ من غسلهُ بالدم
والشمسُ تعرفُ مَن يحرسُ بوابتها فجراً.

وحين تُذبحُ قصيدتي
تعيدُ للذاكرةِ أصواتَ من رحلوا
وتُنادي:
يا أيها القادمونَ من رمادِ القرى
ازرعوا أشجاركم من جديد
فالغصنُ الذي قُطِعَ اليوم
سيعودُ غداً ليحملَ ثمراً.

قصيدتي جدارٌ من نار
لا يُطفئهُ الليلُ ولا المطر
لأنها مكتوبةٌ بالحبرِ والدم
ومختومةٌ بدموعِ الذين لا يعرفونَ الاستسلام.
قصيدتي وطنٌ آخر
يتنفّسُ في حناجرِنا
ويكبرُ كلما صرخنا معاً:
لن نموت
بل سنولدُ من جديدٍ مع الفجر.

تعبُ المسافرِ في وطنٍ بلا وطن

لا شيء يُعجبني...
أنا مثلهم، لا شيء يُعجبني
غير أني، مذ صارت الأرضُ حقائبَ منفى
وتحول البحرُ إلى ممرٍّ للغياب
تعبتُ من السفر.

أحملُ حقيبتي
كما يحملُ الشجرُ الطيورَ الخائفة
كلُّ الحدودِ أمامي
أبوابُ جُمرٍ موصدة
كلُّ الأسماءِ على جوازاتي
تتساقطُ كأوراقٍ يابسةٍ في الريح
ولا أحدٌ يسألني:
مَن أنت؟
بل: إلى أينَ ستمضي؟
وأنا لا أدري...

كنتُ أُحبُّ القُرى
التي ترسمُ على كفِّ الصباحِ رغيفاً من القمح
وأُحبُّ النوافذَ الصغيرة
التي تُغنّي منها أمي للغائبين نشيدَ الرجوع
وأُحبُّ أصابعَ أبي
حينَ تُعلّمني أسماءَ النجوم
لكنهم سرقوا الليلَ منّي
وصارَ القمرُ مُصادَراً.

يا أيها الوطنُ
أيها الاسمُ المذبوحُ على الخرائط
أيها الطفلُ الممدّدُ على حافةِ الجغرافيا
بلا حليبٍ أو سماء

لماذا تركتَنا عالقين
بينَ الخيمةِ والمنفى
بينَ الميناءِ والرصيف
بينَ السجنِ والذاكرة؟

أنا لا شيء يعجبني
لكنّي أُحبُّ الغضبَ في وجوهِ الفقراء
حينَ يرفعونَ كفَّ الخبزِ مثلَ علم
وأُحبُّ الأطفالَ حينَ يكتبونَ
على جدرانِ المخيَّم
أسماءَ أمهاتهم بالطبشور
وأُحبُّ أصواتَ الشهداء
حينَ يطلّونَ من صورهم
كغيمٍ يرفضُ أن يمطرَ على القتلة.

أنا تعبتُ من السفر
من الطرقاتِ المكسورةِ التي لا تؤدّي إلا إلى
بوّاباتٍ تُقفلُ في وجهي
ومن الطائراتِ التي تتركُ في سمائي خطوطاً
كأوردةِ يدٍ تُنزَف
ومن الخرائطِ التي تقولُ لي:
هنا وطنُك
بينما كلُّ شيءٍ مُسيَّجٌ بسياجِ الغرباء.

أريدُ أن أكتبَ
قصيدةً لا تُفتَّشُ في المطارات
قصيدةً لا يُصادِرُها جنديٌّ على حاجز
قصيدةً تحملُني إلى شرفةٍ
تطلُّ على بحرٍ يعرفُ اسمي
إلى حقلٍ يناديني فيه قمحُ أجدادي:
عُدْ، فقد كبرتِ السنابلُ في انتظارك.

لا شيء يعجبني...
أنا مثلهم، لا شيء يعجبني

لكنّي لا أزالُ أُحبُّ هذا الغبارَ
الذي يتبعني كظلٍّ عنيد
وأُحبُّ هذا القلبَ
الذي ما زالَ يصرخُ رغمَ تعبِه
وأُحبُّ هذا الحلمَ
الذي ينهضُ من رمادِ الخيمةِ
كنخلةٍ ترفضُ أن تنحني.

يا أيها الوطنُ
أعِدْني إليكَ ولو شظايا
أعِدْني إليكَ ولو اسماً في دفاترِ الغائبين
أعِدْني إليكَ ولو أغنيةً في فمِ الريح
فقد تعبتُ من السفر...
تعبتُ من السفر...
ولا شيء يعجبني
إلا أن أعودَ إليكَ.

في المنفى الأخير أحبّك أكثر

في المنفى الأخير أحبّك أكثر ..
حين تغلقُ المدنُ أبوابها في وجهي
وتتساقطُ الشوارعُ مثلَ أوراقٍ منفيّة
ولا دربَ يحملني غيرُكِ.

في المنفى الأخير أحبّك أكثر ..
أحبّكِ حتى تصيرينَ وطناً
أعلقُ عليهِ أهدابي المنهكة
وأكسرُ في كفَّيكِ زجاجَ الخرائط.

خَفَّتْ مآذنُنا من غيابِ الصلوات
وخَفَّ النخيلُ ظلَّه على الرمل
وتراجعت أصواتُ الباعةِ في الساحات
حتى الأرضُ خفَّتْ
وودَّعتْ أرضَها
لكن قلبي ثقيل ..
فاتركيه هنا حولَ بابكِ
ينوحُ ويبكي الزمانَ الجميل.

أنا الذي كنتُ أكتبُ أسماءَ الشهداءِ ..
على جدرانِ الطفولة
وأعلّقُ على عنقي مفاتيحَ البيوتِ المهدومة
أنا الذي خبأتُ تحتَ وسادتي
هتافَ الشوارع
ورائحةَ الترابِ حين يمطر
وخطواتِ أبي وهو يعودُ من الحقل.

اليومَ لا شيء سوى الخيمةِ وريحِ البحر
ولا شيء يُسندُ رأسي
سوى عُري الكلام.

في المنفى الأخير أحبّك أكثر
أحبّكِ كأنكِ الوطنُ الذي يتشكلُ من ضوءٍ وعشب
أحبّكِ كأنكِ الصرخةُ الأولى
حينَ يهبُّ الفقراءُ على الخبز
وكأنكِ القصيدةُ التي لا تُفتَّشُ في المطارات
ولا يصادرها جنديٌّ على حاجزٍ من غبار.

هنا، في أقصى الغياب
نتذكر زرَّ القميصِ الذي ضاع مناً
وننسى التاجَ على أيامنا
نتذكرُ ضحكةَ الجدّاتِ في الأعراس
وننسى القيودَ على معاصمنا.
هكذا، في المنفى الأخير
نتساوى مع الطير
نرحمُ أيامنا
ونكتفي بالقليل.

في المنفى الكبير
أعانقُ ظلي كما لو كان وطناً
ألمسُ عطرَ الخبزِ في ذاكرة الطفولة
وأُصغي إلى هديرِ البحرِ في شوارعَ بلا بحر
كأنني أكتبُ تاريخي على زجاجِ قطارٍ يمضي
ولا محطةَ لي في آخرِ الخطوط.

في المنفى الكبير
أرى الخرائطَ تذوبُ كشموعٍ في كفِّ طفل
وترتجفُ أسماءُ المدنِ التي علقتها
على صدورِ القصائدِ مثل أوسمةٍ للنجاة
لم يبقَ لي منها سوى الغبار
سوى وجوهٍ تصفّقُ للجلاد
وتبتسمُ للمشانق
وتغنّي للوطنِ كأنه خبزٌ قديمٌ
على شاشةٍ مكسورة.

في المنفى الكبير أحبّكِ أكثر ..
لكن ليس حبّ عاشقٍ لعاشقة
بل حبّ من يخلعُ قلبَه على بوابةِ التاريخ
كي يبقى على قيدِ الإنسانيّة.
أحبّكِ لأنكِ الوطنُ الذي لم يعلَّق على المشانق
المدينةُ التي لم تُقصف في الصباح
والأغنيةُ التي ما تزال
تقاومُ الصدى في حنجرةِ الريح.

في المنفى الكبير
أمشي على طرقاتٍ لا تعرفني
وأرى أعلاماً تُرفرفُ فوق دماءِ الشهداء
كأنها ابتسامةٌ في جنازة
أرى الكلماتِ تباعُ في الأسواق
كالأقمشةِ المستعملة
والشعاراتِ تصنعُ على مقاسِ الطغاة
كأنها عباءاتُ ملوك.

في المنفى الكبير أحبُّكِ أكثر
حين يتكسّرُ القمرُ على زجاجِ النوافذ
وحين يساقُ الأطفالُ إلى موتٍ مؤجّلٍ
في دفاتر المدارس
أحبُّكِ لأنكِ آخرُ قصيدةٍ
لم تقمع بالحذفِ والتوقيع
وأخيرُ حكايةٍ لم تمزَّق
في دهاليز الرقابة.

في المنفى الكبير
أكتبُ بدماءِ أصابعي
على أسوارٍ لا تراني:
"لن يموتَ الوطنُ،
بل نحن الذين نموتُ
كي يظلَّ حيّاً في الأغاني".

أعلّقُ وجوهَ أحبّتي
على أهدابِ القصيدة
وأتركها للريح
كي تحملها إلى ضفّةٍ أخرى
حيث لا سَجّانَ ولا محتلّ.

في المنفى الكبير
أتذكرُ شجرَ الزيتونِ
الذي كان يقصُّ عليَّ
حكاياتِ الأجداد
وأرى جذورَه في وجوهِ اللاجئين
كأنها خيوطُ حنينٍ إلى أرضٍ بلا مطارح.
أرى الأمهاتِ يرضعنَ الأطفالَ
حليبَ الأملِ في مخيّماتٍ
من خيامٍ بلا أبواب
وبردٍ بلا آخر.

في المنفى الكبير أحبُّكِ أكثر
أحبّكِ كما يُحبّ السجينُ الهواءَ
حين يطلّ من شقٍّ في الجدار
أحبّكِ كما يُحبّ الشهيدُ
خطوةً واحدةً إضافيّةً في الساحة.
أحبّكِ لأنكِ لستِ وطناً وحسب
بل جرحاً في القلبِ لا يلتئم
ورصاصةً من ذهبٍ
تكتبُ على الجبين:
هنا ولدتُ لأبقى
هنا نُفيتُ لأعود.

في المنفى الكبير
لا أملكُ غير هذا القلبِ الثقيل
أتركه حولَ بيتكِ
ليعويَ ويغنّي ويكتبَ

زماناً جميلاً
أضاعه الغزاةُ والمهرّجون
وأكتبُ على آخرِ الصفحة:

في المنفى الكبير أحبّكِ أكثر
أحبّكِ كما لو كنتِ آخرَ بلادٍ
وأنا آخرُ المنفيين.

صرخة بين الرماد والدخان

مررتُ في أبوابِ الزمن
أطرقُها بعصاً من رماد
وعشتُ في تاريخٍ مترنّحٍ
كأرصفةِ المدنِ العتيقة
تتقافز بين يديَّ أقدامُ الغائبين
ووجوهٌ لا ترى إلا في المرايا المحطَّمة.

في عامِ الخامسِ والعشرين
وجدتُ نفسي واقفاً على أطلالِ الأحلام
بين الألمِ حين يصرخ حزني
كما يصرخ البحرُ حين يُقتل صمتُه.

لم أجد سوى كتلةٍ من دخانٍ ونار
كما تتصاعدُ التواءاتُ دخانِ سيجارتي
تتلوّى كأفاعٍ تبحث عن شمسٍ ميتة
وتختفي في هواءِ المدنِ المقهورة.

في الشوارعِ حكاياتٌ مكسورة
وحروفٌ تتساقط كأوراقِ الخريف
في ليلٍ طويلٍ لا ينتهي.
أرى وجوهاً ترسمها القذائف
وأسماءً تُخطف من التاريخ
كما يُخطف الماءُ من النهر.

يا وطن
كم حملتَ في صدرك من صرخةٍ مكتومة
وكم صبغتَ الدروبَ بالتراب الأسود
لكنّي أرى شعاعَ الفجر يتسلل
بين الجدران المدمّرة
ويهمس: هنا حياةٌ، رغم كلّ شيء
حياةٌ تقاومُ الجوعَ وتنهضُ من الركام.

مرّت أيّامٌ مثل قطاراتٍ بلا وجهة
وعيونُنا تلاحقُ الحريقَ على الجدران.
أسمع صدى الكلماتِ التي لم تكتب
وأرى الوعودَ تذوبُ
في ألسنةِ الساسةِ والغرباء.

يا أيها الزمنُ المتأرجح
يا أيها الذي يسقطنا في الحفر
ويعلقنا بين الجدران
تعلّمتُ أنّ الحزنَ ليس ضعفاً
وأنّ الغضبَ نارٌ تتحول إلى نورٍ
حين يلتقي بالصدق
حين يلتقي بالثبات.

وها أنا أعيدُ رسمَ الخرائط على صدري
أعيدُ كتابةَ الحكايات بين دخانِ سيجارتي
وأرسلُ كلماتي كسهامٍ
تهزّ عروشَ الجبناء
وتوقظ الضميرَ الميت.

لأرى، في نهايةِ هذا العام
وجهاً لم يختفِ
وسماءً لم تنهَر
وناراً تتحول إلى ضوء
ودخاناً يزول بلا أثر.

مررتُ في أبوابِ الزمن
وعشتُ في تاريخٍ مترنّح
لكنّي لم أركعْ، ولم أخرسْ
وسأظلُّ أكتب على الجدرانِ المدمّرة:
الحريةُ لم تمُت
والإنسانُ الذي صرخَ في داخلي
لا يزالُ يقاوم...
حتى آخرِ نفس.

مدنٌ تكتب أسماءها بالدم والقصيدة

أيُّ سرٍّ يختبئُ في رأسِ نيرونَ الجديد
حين يرى مهاباذَ تشتعلُ كقنديلٍ مكسورٍ
في ليلٍ يتيم؟
يضحكُ للدمِ وهو يسيلُ
كما لو كان خمراً يسكبُ على مائدةِ جنونه
ويحسبُ صراخَ الأمهاتِ
نشيداً يرافقُ موكبه الثقيل.

وبماذا يوسوسُ له جنونُه
حين يسمعُ عفرينَ تبكي بساتينَها؟
يصفّقُ للجرافاتِ وهي تقتلعُ حجارةَ الذاكرة
ويحولُ عطرَ الياسمينِ إلى دخان
كأنه يكتبُ تاريخاً جديداً
بمدادٍ من رمادٍ وأحلامٍ مكسورة.

وأيُّ رؤيا تُغريه
حين يرى كوباني واقفةً
على أعتابِ النار؟
يظنُّ أنَّ المدنَ لا تُقاوِم
وأنَّ الأطفالَ الذينَ يركضونَ في الشوارعِ
ظلالٌ عابرة
لكنَّه ينسى أنَّ الأرضَ التي تتشبّثُ
بدمِ أبنائها
تغدو أصلبَ من حدِّ سيفه
وأطولَ من عُمرِ جنونه.

وأيُّ كابوسٍ يُطارده
حين يتأملُ أمدَ
مدينةً تعانقُ الليلَ كقصيدةٍ محاصرة؟
يحاولُ أن يُسكتَ شوارعَها

أن يُطفئَ أنفاسَها
لكنَّها، في كلِّ فجرٍ
تشعلُ أصابعَها كشموعٍ في العتمة
وتقولُ: نحنُ هنا
والريحُ لا تعرفُ سوى أغانينا.

نيرونُ الجديد ..
يرتجفُ من قصيدةٍ ولدت في قلبِ حجر
من دمعةِ أمٍّ على بابٍ مهدوم
من أغنيةِ طفلةٍ في ليلٍ ثقيل
ومن مدينةٍ تعرفُ أنَّ القيامةَ
تبدأُ من خطوةِ جائع
ومن قبضةِ عامل
ومن همسِ عاشقٍ يزرعُ وردةً
في فمِ المدفع.

فأيُّ هذيانٍ سيبتلعُه
حين يدركُ أنَّ النارَ التي أشعلها
لن تُبقيه إلهاً
بل ستجعلهُ لعنةً؟
وأنَّ المدنَ التي أرادَ محوَها
ستبقى تُسطّر أسماءَها
بدمِ الشهداء
وبقصائدِ الخلود.

أغنية منفيٍّ إلى التي لا أعرف اسمها

عزيزتي...
لا أعرفُ اسمكِ
لكنّي أحفظُ في قلبي ارتعاشةً من ظلّكِ
كأنكِ ولدتِ في أولِ النسيانِ
وولدتُ أنا في آخرِ المنفى.

أنا أيقونةٌ منفيّةٌ في تاريخكِ الأزلي
صورةٌ باهتةٌ على جدارِ الليل
وسطرٌ تائهٌ في كتابِ الرّيح.
في غيابكِ أمدّدُ قدميَّ نحو النسيان
لكنّ الذاكرةَ تتشبّثُ بي
كما تتشبّثُ النخلةُ بظلّها في قيظِ الصحراء.

أراكِ...
بدويّةَ الرّوحِ
تسيرينَ في رمالِ الليلِ
كما تسيرُ قافلةُ نجومٍ
إلى نبعٍ سِرّيٍّ في عمقِ السماء.
أراكِ تدمريّةَ العينينِ
عيناكِ حجارةٌ مقدّسةٌ
انكسرتْ عليها أعوامُ الغزاة
وعلى هدبِهما يقيمُ التاريخُ خيامَهُ
ويُشعلُ مواقدَ الحنين.

كيف تسلّلتِ إلى لغتي
وأنتِ لا اسمَ لكِ؟
كيف صرتِ كالأغنيةِ التي لا تحفظُ كلماتُها
لكنّ لحنَها يبقى في الدم؟
أنا فيكِ المنفى
وأنتِ فيَّ الوطنُ الذي لم يولدْ بعد

وأنا الساعي إليكِ
على خيولِ الريح
أحملُ عطشَ القبائل
وقلوبَ العصافيرِ المطرودةِ من أعشاشِها.

في غيابكِ
أشربُ من كؤوسِ الرمل
وأكتبُ أسماءكِ في دفاترِ السراب
وأغنّيكِ كما يغنّي الظَّللُ البعيدُ
في مواويلِ الرُّحَّل.
وفي حضوركِ
تنهضُ لغتي كغابةِ زيتونٍ
تلمعُ على أغصانِها دموعُ الفجر
ويصبحُ قلبي وطناً صغيراً
يأوي إليه الطيرُ
ويستريحُ فيه الغيمُ.

أنا وأنتِ...
نحنُ سؤالانِ على خارطةِ الغياب
أنا شجرةٌ تُصلّي للغيم
وأنتِ غيمٌ يُصلّي للشجرة.
أنا المنفى ..
الذي يكتبُ نشيدَهُ الأخير
وأنتِ الوطنُ ..
الذي يولدُ من حروفِ القصيدة.

فاكتبي اسمكِ ..
– إن شئتِ – على كفّي
كي أرى في خطوطِه خريطةَ العودة
واكتبي وجهي ..
– إن شئتِ – على رملِكِ
كي أكونَ فيكِ أثرَ المسافرِ حينَ يعود.

عزيزتي...
لا أعرفُ اسمكِ
لكنّي أعرفُ أنّكِ
السِّرُّ الذي يجمعُ بين بدويّةِ الجمال
وتدمريّةِ الذاكرة
وأعرفُ أنّكِ
آخرُ حدودي
وأولُ معابدي.

نهرٌ يتيه في نفسه

في الليلِ أُصغي إلى صوتي في الغرفةِ
كأنه آخرُ غريبٍ يزورُني
أبحثُ عن ظلّي على الجدار
فلا أجدُ سوى ظلِّ حلمٍ
تركتهُ على الطاولةِ مع كأسِ ماءٍ فارغ.

أتحسَّسُ وجهي بأصابعِ الغياب
فأجدني شبيهاً بمن كنتُه
ولا أعرفُ إن كنتُ أنا أم ذكرى لرجلٍ
كان يعيشُ هنا ذاتَ مساء.
على الرفِّ كتابٌ مفتوحٌ على صفحةٍ بيضاء
وفي النافذةِ قمرٌ
يحدّقُ فيَّ كأنَّهُ يعرفُ سِرّي.

يا لهذا الليلِ...
كيف صرتُ غريباً عن سريري
غريباً عن رائحتي في الثياب
غريباً عن هذا الجسدِ الذي يسألني:
مَن أنت؟

أمدُّ يدي إلى الهواءِ
كما يمدُّ العطشانُ يديه إلى نهرٍ جاف
أبحثُ عن ماءٍ في الكلام
أبحثُ عن مفتاحٍ للذاكرة
عن نافذةٍ أطلُّ منها على نفسي
فأراها تمشي بعيداً عنّي.

الحنينُ يلاحقني مثل كلبٍ في الوادي
ينبحُ على أطرافِ قلبي
يعضُّ أصابعي حينَ أحاولُ أن أنسى
ويتركني ممزَّقاً بين صورةٍ وذاكرة

بين قمرين: واحدٍ في السماء
وآخرَ في داخلي يذوبُ ببطء.

أنا النهرُ الذي ماتَ من العطش
أحملُ عطشي في حقيبةِ السفر
وأعودُ إلى نفسِ المكان
دون أن أتذكر أنني غادرتُه.
أنا الجسدُ الذي نسيَ قلبَهُ في قطارٍ بعيد
والقلبُ الذي نسيَ اسمَهُ على تذكرةٍ قديمة.

أفتحُ النافذةَ
فيمرُّ الليلُ مثل غريبٍ
وتدخلُ أصواتُ الطيورِ والكلاب
أحاولُ أن ألتقطَ ملامحي من الهواء
فلا أجدُ سوى رائحةِ الغياب
وخطوطِ يدٍ لا أعرفُ إن كانت يدي.

أقولُ لنفسي:
ربما هذا هو المرضُ الأخيرُ للحبّ
ربما هذا هو الحنينُ إلى النسيان
أن تبحثَ عنكَ فلا تجدكَ
أن تستيقظَ في بيتكَ
كأنَّه بيتُ غريبٍ
أن تلمسَ أشياءَكَ
كأنها تلمسُكَ لتقولَ:
ما زلتَ حيّاً، ولكن في مكانٍ آخر.

وأنا، ما زلتُ أكتبُ هذا النصَّ
كأنني أكتبُ وصيّتي
إلى النهرِ الذي يموتُ من العطش
إلى الغريبِ الذي ينامُ في سريري
إلى الجسدِ الذي يبحثُ عنّي
في الظلام.

على أبواب الزمن

على أبوابِ الزمنِ وقفتُ ..
أحملُ تاريخَ ميلادي ..
كما يحملُ جنديٌّ جُرحَهُ في المسير
ترنَّحتْ أعوامي كأرصفةٍ مبلَّلةٍ بالخيبة
وبين صرخاتِ حزني
كنتُ أقرأُ دموعي على
جدرانٍ تشقَّقتْ من طولِ الانتظار.

يا وطني ...
كيف تسكنُ في صدري كعاصفةٍ لا تهدأ؟
كيف تُصبحُ اسمي حين ينادي الغريبُ على الغريب؟
وكيف تتركني وحيداً
أعدُّ أنفاسي على حبالِ المشنقة
وأكتبُ نشيدي من دخانِ سجائري المتصاعد
كأعمدةِ حزنٍ في سماءٍ بلا نجوم.

صرخةُ قصيدتي آخرُ ما أملك
أُطلِقُها في وجهِ الليلِ كي لا أنطفئ
أُطلِقُها في وجهِ الطغاةِ كي يعرفوا
أنَّ الأرضَ لا تموتُ
وأنَّ الحبرَ حين ينزفُ
أمضى من رصاصِهم وأبقى.

أنا ابنُ هذا الغياب
ابنُ هذا الرمادِ الساكنِ أكتافَ البيوت
ابنُ هذه المنافي التي لا تُشبهُ غيرَ وجعي
لكنني أقفُ كجذعِ شجرةٍ لا تنحني
أُوزِّعُ ظلالي على العابرين
وأقولُ:
لن تموتَ البلادُ وفيها شاعرٌ يحرسُ ذاكرةَ التراب.

على أبوابِ الزمنِ كتبتُ ديواني: "جحيمُ الأمل"
فكلُّ أملٍ يولدُ من رحمِ النار
وكلُّ قصيدةٍ لا تُقاوِمُ موتَها
لا تستحقُّ أن تُدعى قصيدة.

فامنحوني صرخةً أُعلّقُها على جدارِ النهار
وامنحوني وطناً
يشبهُ عروقَ يدي حين تشتاقُ للغد
وامنحوني موتاً يليقُ بكرامةِ شاعرٍ
لا ينامُ إلا على صدرِ الحقيقة
ولا يصحو إلا على وعدِ الحرية.

هكذا أكتبُ...
لا شيءَ يوجِعُني سوى أنني ما زلتُ حيّاً
أحرسُ هذا الحلمَ الذي يتكاثرُ
كالعشبِ في قلبِ الخراب
وأقولُ للأرض:
اصبري
فإنَّ قصيدتي
ستكونُ غدكِ.

وإذا غبتُ عنك يوماً
فاعلم أنّ قلبي هناك
يتوه بين السطور
وينبش عنك في كل حرفٍ
لم يكتب بعدُ على الصفحات.

صرخةُ قصيدتي آخرُ ما أملك
أُطلِقُها في وجهِ الليلِ كي لا أنطفئ
أُطلِقُها في وجهِ الطغاةِ كي يعرفوا
أنَّ الأرضَ لا تموتُ
وأنَّ الحبرَ حين ينزفُ
أمضى من رصاصِهم وأبقى.
The Inferno of Hope